

مذكرات
الرحّالة يونس بحري

في سجن أبو غريب مع رجال العهد الملكي في العراق بعد مجزرة قصر الرحاب عام ١٩٥٨

إعداد وتقديم

خالد عبد المنعم العاني

الدار العربية للموسوعات

مذكرات الرحالة

يونس بحري في سجن أبو غريب
مع رجال العهد الملكي
بعد مجزرة قصر الرحاب عام ١٩٥٨ في العراق

إعداد وتقديم

خالد عبدالمنعم العاني

الدار العربية للموسوعات

مذكرات الرحالة

يونس بحري

الطبعة الأولى

٢٠٠٥ م ـ ١٤٢٦ هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية ـ ص.ب: ٥١١ ـ هاتف: ٩٥٢٥٩٤/ ٠٠٩٦١٥ ـ فاكس: ٤٥٩٩٨٢/ ٠٠٩٦١٥
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣/ ٠٠٩٦١٣ ـ ٥٢٥٠٦٦/ ٠٠٩٦١٣ ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com
البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

المقدمة

يونس بحري. . إعلاميٌّ عراقيٌّ طواه النسيان، منذ عقود مضت. كان يمتلك قدرات شخصية متفردة. مع عشرينات القرن الماضي **تعرَّف إليه الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية**، وكلَّفه بمهمة نشر الإسلام، في مناطق جنوبي شرق آسيا. لم يكن داعية إسلامية، ولا متديناً بما فيه الكفاية. ولكنه كان خطيباً مفوَّهاً ينفذ إلى قلوب سامعيه في التوّ واللحظة، وهذا ما سهَّل عليه النجاح فيما كلِّف به، **وكان عند حسن ظن الملك عبد العزيز.**

عندما قفز أدولف هتلر إلى الرايخ الألماني، في بدايات الثلاثينيات، وشغف به عرب المشرق أيّما شغف وقتذاك. آملين أن يكون منقذهم من الاستعمارين الإنكليزي والفرنسي. شدَّ المغامر يونس بحري الرحال إلى ألمانيا. وهناك استطاع مقابلة الرجل الثاني في الرايخ «غوبلز» وزير دعاية هتلر. وأقنعه بفكرة تأسيس إذاعة برلين العربية. لتكون بمواجهة إذاعة B.B.C البريطانية، التي تصل إلى كل مستمعي المشرق العربي. وابتدأ يونس بحري البث من برلين بعبارته الشهيرة التي أزعجت البريطانيين «**حي العرب . هنا برلين**» وأصبحت عبارة حي العرب لصيقة بيونس بحري.

لم يقف طموح يونس بحري عند هذا الحد، بل طلب من غوبلز أن يوافق على أن يفتتح برامج إذاعة برلين بتلاوة من القرآن الكريم. إلا

أن غوبلز تريث في ذلك ليقابل الفوهرر هتلر أولاً، ويأخذ رأيه في الأمر، فطلب بحري من غوبلز ترتيب لقاء له مع الفوهرر، وتم اللقاء بالفعل، واستطاع بحري إقناع هتلر بنجاعة بدء برامج الإذاعة بالقرآن الكريم. وسوف يكون عاملاً يشدّ مستمعي عرب المشرق إليها، والعزوف عن إذاعة الـ B.B.C، التي كانت تخلو من القرآن الكريم، وبدأت إذاعة برلين بث برامجها الصباحية، بآيٍ من الذكر الحكيم، وما هي إلا أشهر قليلة، حتى راحت الـ B.B.C، تبدأ بثها الصباحي بتلاوة من القرآن الكريم.

يونس بحري قرّبه الرؤساء، وأحبه الناس، واقترن اسمه بهتلر - شخصية خلاَّقة تنوعت مواهبها في الإذاعة والصحافة والتأليف والخيال.. وظل الحقيقة! **يونس بحري**. . ربما سمعنا عنه جميعاً.. لكننا عرفنا عنه النزر اليسير والمتفرق. نعرف أنه عمل في إذاعة برلين وأخرج منها بقرار من الحاج أمين الحسيني، بعد أن كان العامل الرئيسي في نجاحها، وملك آذان المستمعين العرب في كل مكان، وقد قرر الحسيني إخراجه لأنه لم يكن يلتزم بنصوص البيانات والتعليقات التي كان يعدها المكتب العربي في القدس فقد كان ينفعل ويضيف عبارات قاسية غير مكتوبة في النص، وكان يخصّ الوصي عبد الإله بالقسم الأكبر من شتائمه، وكذلك نوري السعيد والملك عبد الله في الأردن. **يونس بحري من أبناء مدينة الموصل** ..متى ولد وكيف نشأ.. وسار في دروب الحياة واختطّ فيها نهجاً متفرداً وزار الأصقاع والأمصار.. ثم عاد إلى مسقط رأسه ليقضي ما تبقى من عمره في بيت أحد أقربائه، الصحفي (نزار محمد زكي الجبوري) الذي عمل في وكالة الأنباء العراقية لفترة من الزمان.. وقد مات البحري في بغداد **ودفن في مقبرة الغزالي في آذار (مارس) من عام ١٩٧٩**.

ولد يونس صالح خلف الجبوري بحري في الموصل ونشأ في محلة الخضر، وهو من عشائر الجبور التي استقرت في ضواحي مدينة الموصل منذ حوالي الخمسة قرون، وتسمى عشيرته الجوابنة، ويعود أصلها إلى قحطان. كان والده صالح أغا الجبوري يوزباشي في الجيش العثماني يقوم بتأمين البريد بين إسطنبول مركز الدولة العثمانية وولاية الموصل. له أخوان صادق أفندي الجبوري والذي توفي عام ١٩٤٧ وكان قائمقاماً لعدة أقضية في وسط وشمال العراق ومنها دلي عباس وشرانش والعاصي، وكان يونس يزوره في هذه المناطق زيارات طويلة تعلم خلالها العديد من اللهجات المحلية كما سيأتي ذكره لاحقاً، والأخ الثالث طه الجبوري وكان مُعقباً في محاكم الموصل. ويونس بحري طويل القامة أشقر، عيناه زرقاوان، وصوته عالي النبرة. درس في مدارس الموصل، وامتهن الصحافة في وقت مبكر وأصدر أول كتبه (العراق اليوم) عام ١٩٢٤ المحفوظ في مكتبة الأوقاف في الموصل وكان محرراً رئيسياً في صحيفة (العقاب) وهي صحيفة سياسية أدبية. دخل معترك السياسة كمعلق صحفي وإذاعي في بداية الثلاثينيات قبل وبعد تتويج الملك غازي الأول ملكاً على العراق حيث كان أحد أصدقائه المقربين لعدة أسباب، منها ميول الملك غازي السياسية التي تنسجم مع أفكار يونس وتتمثلان بمعاداتهما للسياسة البريطانية وانحيازهما إلى حكومة (الرايخ الثالث) أي حكومة (هتلر). **وكان يونس بحري أول مذيع قدم الملك غازي من إذاعة قصر الزهور التي أهداها بدوره إلى الملك غازي.** وقصة هذه الإذاعة أن الملك غازي كان مصوناً غير مسؤول، ولا يمكن للمندوب السامي التدخل في شؤونه الخاصة، كما لم يكن له سلطة رسمية على القصر الملكي باعتباره مندوباً سامياً والعراق تحت الوصاية البريطانية وهذا ما مكن يونس بحري أن يعبر ـ بصوته ـ عن آراء الملك عبر هذه الإذاعة، أو استطاع الملك غازي أن

يعبر عن آرائه من خلال هذه الإذاعة وبصوت يونس بحري. وعند اغتيال الملك غازي كتب يونس قصة مقتله في إحدى الصحف وقام بنفسه بتوزيع نسخ الصحيفة على دراجة نارية موضحاً أن عبد الإله ونوري السعيد قد تآمرا مع الإنكليز واغتالوه. وإذ ذاك أدرك خطورة وجوده في العراق فاتفق مع القنصل الألماني في بغداد الدكتور كروبا على الهرب إلى خارج العراق.. فوصلت إلى بغداد طائرة ألمانية تحمل وفداً صحافياً وعند هبوط الطائرة صعد إليها يونس باعتباره صحافياً لمقابلة الوفد فعادت إلى التحليق متجهة إلى ألمانيا.وهناك أصبح أحد أقرب المقربين للقيادة النازية وبالذات غوبلز، ومنح رتبة عسكرية ألمانية بدرجة ماريشال، وكان يحمل على كتفه الصليب المعقوف في الحفلات الرسمية التي يحضرها، وأسس الإذاعة العربية في برلين بإعلانها الذائع الصيت (هنا برلين حي العرب)، وخصصت هذه الإذاعة تعليقاتها الرئيسية لمهاجمة الحلفاء، وتوعية الجماهير العربية للخطر الاستعماري المحدق بهم كأمة.

تزوج يونس بحري لأول مرة من امرأة موصلية اسمها مديحة من منطقة متفرعة من شارع النجفي في الموصل، وأنجب منها ابنين وبنتاً. البكر.. هو الدكتور لؤي بحري، وهو أستاذ في جامعة الجزائر للعلوم السياسية، والثاني الدكتور سعدي يونس الفنان الأكاديمي المتخصص في الفنون المسرحية (المسرح الشعبي) ويحمل ميولاً يسارية، ويعمل في جامعة السوربون في فرنسا، ودعي آخر مرة إلى مهرجان بابل حيث قدم مسرحية مثلها منفرداً وهي (المجنون). والبنت هي الدكتورة منى بحري الأستاذة المتقاعدة من جامعة بغداد والمتخصصة بعلم النفس. **ويونس يتقن ستّ عشرة لغة عالمية أساسية قراءة وكتابة، عدا اللغات واللهجات المحلية العراقية، فيتقن مثلاً على المستوى العالمي اللغة السواحيلية، وقد وصل عدد زوجاته إلى أكثر من أربعين**، وكان يقول: لقد بدأت

بشهريار الإيرانية وانتهيت بشهرزاد السورية، ولا أدري إن كان قد تزوج شهريار قبل زوجته الموصلية مديحة أم بعدها. (وقد كان رجلاً عجائبياً حقاً). ففي فترة من حياته يجد وقتاً ليقوم بعمل إضافي مراسلاً لإحدى الصحف الهندية، وفي وقت آخر أصبح مفتياً في أندونسيا، ومرة جاءه أحد سكان الجزيرة المعروفين مُصطحباً معه فتاة في منتهى الجمال يريد منه أن يعقد قرانه عليها..(فاستحيفها) يونس لأن الرجل كان مُسنّاً ودميماً وأفهمه أنه لا يجوز شرعاً عقد قرانه عليها، فصدّقه الرجل لأنه (مفتي) وترك الفتاة، فتزوجها المفتي يونس، وقد سُمي بالبحري لأنه وصل في إحدى جولاته كسائح في منتصف الثلاثينيات (طاف العالم أربع مرات) إلى الساحل الذي ينطلق منه سباحو العالم لعبور بحر المانش، فتقدم يونس باسمه وبعلم بلاده العراق لدخول المسابقة قبل ساعات معدودة من بدئها دون تحضير سابق أو تدريب. فعبر البحر محرزاً قصب السبق وفائزاً بالمركز الأول مسجلاً سابقةً لا مثيل لها، فأطلق عليه اسم يونس بحري، ومنح جواز سفر دبلوماسيًّا ألمانيًّا بهذا الاسم ولأول مرة.

توجه إلى العراق قبل ليلة واحدة من ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ أي في ١٣ تموز أي قبل انبثاق الثورة بيوم واحد فأرسل في طلبه نوري السعيد، وكان هناك خلاف بين السعيد وعبد الناصر فطلب إليه نوري السعيد أن يذيع مقالاته ضد عبد الناصر.. ففعل.. فاعتُبر بعد الثورة كأحد أنصار نوري السعيد في حين أنه حارب الاستعمار والسياسة البريطانية والوجود الأجنبي في العراق سنين طويلة، واعتقل بعد الثورة لفترة تقارب السبعة أشهر في سجن أبو غريب، وأطلق سراحه دون محاكمة لعدم كفاية الأدلة، وعدم وجود قضية أصلاً، وذلك بعد مقابلة حامية مع الزعيم عبد الكريم قاسم.. وقد تعرف أثناء اعتقاله إلى رئيس عرفاء في السجن فقال له مرة: لماذا لا تقوم بانقلاب وتستولي على السلطة؟ فأجاب: كيف وأنا رئيس عرفاء؟ فقال: وكيف استطاع رئيس عرفاء في

دولة إفريقية القيام بثورة.. وحين سمع عبد الكريم قاسم هذه المحادثة أرسل في طلبه وقال له: أتريد أن تفسد عليّ جنودي؟ وبعد إطلاق سراحه افتتح مطعماً في منطقة الكرادة ببغداد، وأخذ يرتاده كبار الشخصيات السياسية والفكرية والسفراء فكان أشبه بمنتدى، وكان يونس يقوم بطبخ الأكلات المختلفة التي تعلمها أثناء سفراته.. ولم تحبذ أجهزة أمن عبد الكريم قاسم هذه المسألة، فسمحوا له بالسفر بعد أن أخذ الزعيم عبد الكريم قاسم منه وعداً بعدم مهاجمة نظامه بعد مغادرته الأراضي العراقية. وقد تم تخصيص راتب له بعد سفره إلى لبنان قدره مائة دينار يستلمه من السفارة العراقية في بيروت ولكنه لم يتوقف عن نشاطه فأصدر كتابه هذا الذي يشرح فيه وضعه في سجن أبي غريب والموقف العام في باب المعظم.

أصدر يونس بحري حوالي ستة عشر كتاباً منها (العراق اليوم)، (الحرب العراقية البريطانية) وسلسلة (هنا برلين حي العرب) حوالي عشرة أجزاء و (سبعة أشهر في سجون قاسم).. ومن الصحف التي أصدرها كان صاحب ورئيس تحرير صحيفة (العرب) الصادرة في باريس أواخر الخمسينيات باللغة العربية كما أصدر صحيفة (أبو ظبي نيوز) باللغة الإنكليزية في (أبو ظبي) وأصدر مجلة (العراق والكويت) في أندونيسيا في منتصف الثلاثينيات ..

- كان من أبرز صعاليك العرب في هذا القرن. . **وكان يتنقل حاملاً في حقيبته الدبلوماسية أربعة أشياء: جواز سفر، قنينة عرق، فرشاة أسنان وأدوات الحلاقة.** وقد شارك في التظاهرة التي تدلل على وطنية حقة، والتي تحولت الى هجوم على القنصلية البريطانية قرب منطقة المحطة في مدينة الموصل حيث قُتل القنصل البريطاني. وكان من أبرز أصدقائه العالم المعروف محمد صديق الجليلي الذي كان يدعوه دائماً لمجالسته،

وكذلك عبد الجواد الطريحي وعبد الوهاب الخياط، وكان الأدباء في السنوات الأخيرة يدعونه ويجالسونه في الموصل، مثل القاص الدكتور نجمان ياسين، والقاص محمد عطاء الله، والشاعر سالم الخباز.. لم يكن يتحسر على شيء لأنه عاش حياته بكل تفاصيلها.. من الرهبنة والتعبد والتصوف إلي الرقص واللهو والسكر بالإضافة إلى السياحة والرياضة والصحافة والإذاعة والتنقل بين الزوجات كما لو كانت بلداناً يطوف بها، وكان الحصول على المال من أيسر الأشياء بالنسبة له. ومع هذا مات وحيداً مفلساً في دار أحد معارفه في الباب الشرقي في بغداد، وأوردت نبأ وفاته وكالة رويتر للأنباء، وكالة الأنباء الفرنسية، ونشر الخبر في الصفحة الأولى لجريدة (النهار) اللبنانية. وكان والد غسان تويني مؤسس جريدة النهار صديقاً حميماً له، وهو الذي عرفه باللبنانية سميرة أيوب وزوجه إياها، والتي توفيت في حادثة سيارة بعد ثورة ١٤ تموز (يوليو) بفترة قصيرة جداً، وكانت تزوره في السجن حيث اعتادت أن تحضر له ليرات ذهبية حيث كانت بثلاثة دنانير إلا ربعاً واعتاد أن يطلب من زوجته كلوس (تكة) سكاير (نوع كامل) :camel وحليب قواطي غير مُحلى. ومن النوادر التي حدثت له في الموقف العام أنه وتوفيق السويدي رئيس وزراء العراق السابق كانا في قاعة واحدة في السجن، وكان كلاهما يُكنى (بأبي لؤي) وفي يوم جاء ضابط السجن صائحاً: مَن (أبو لؤي).. فخاف السويدي أن يرد عليه لأنه توقع أن يكون وراءه شرّ ولم يجب.. وأجابه يونس بحري وكانت المفاجأة أن الضابط أحضر مظروفاً يحوي مائة دينار فوقّع بحري واستلمها.. وبعد أيام جاءت رسالة إلى توفيق السويدي تقول: هل استلمت المائة دينار؟.. (ومن طريف حديثه قبل وفاته بفترة قصيرة أن جاءه أحد الزوار وكان يتحدث بشكل بطولي عن مقدرته حيث خدع أحد أفراد شرطة الحدود وهرَّب بعض المواد حين دخوله العراق من الحدود التركية.. وبعد

مغادرة هذا الرجل قال بحري: ضحكنا على ذقون ملوك ورؤساء سنين طويلة وهذا يتفاخر بأنه خدع شرطياً..!) ولم يكن يخاف من السجن لأنه لم يكن خائناً، وقد سبق أن حُكم ثلاث مرات بالإعدام خارج الوطن وداخله حيث أصدر نوري السعيد حكم الإعدام بحقه غيابياً.. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية حكمه الحلفاء أيضاً.. وحُكم مرة في إفريقيا أثناء الحرب أيضاً حيث أرسل مبعوثاً عن الحكومة الفرنسية لمفاوضة إحدى القبائل الحاكمة، وحين رأوا اسمه على الجواز (JOHANS BAHRI) تصوروه عميلاً فرنسيّاً وحكموا عليه بالإعدام.. وحين سأله الضابط المسؤول عن رغبته قبل ان ينفذ فيه الحكم في اليوم التالي طلب قنينة ويسكي.. فقال له: كيف تطلب مشروباً وتستسيغ شربه وأنت مقبل على موت محتم؟ فأجابه أنا مجنون حيث جئت هنا.. فلماذا لا أطلب المشروب؟ فضحك الضابط وجلب ما طلبه. وفي الهزيع الأخير من الليل جاءه لا ليقتاده إلى ساحة الإعدام بل ليهرِّبه.

كانت علاقة يونس بأولاده واهية بسبب رحلاته الطويلة لأنه تركهم صغاراً فربّتهم جدتهم لأمهم (مريم خانم) والتي كانت تملك في الثلاثينيات في مدينة الموصل مدرسة لتعليم الخياطة. وقد لحقت به (أي بيونس) أمهم (مديحة) إلى باريس وأصبحت تمتلك صالون حلاقة هناك.

في مجلس الملك عبد العزيز آل سعود

كان يونس بحري في مجلس الملك الراحل عبد العزيز آل سعود حين جاء من يبشر الملك بمولوده الثالث والستين. نظر الأمير فيصل إلى يونس بحري وابتسم، وكان الملك عبد العزيز لمّاحاً، فلاحظ نظرة ولده وابتسامته، فسأله عما عنده فقال الأمير فيصل:

ـ بلغ عدد أولاد يونس بحري أربعة وستين ولداً عدا الإناث.

فسأله الملك عبد العزيز:

ـ هل صحيح يا يونس أن عدد أولادك أربعة وستون؟

فرد يونس بحري قائلاً: ـ الذكور منهم فقط يا طويل العمر!

وهكذا انتهت حياة هذا الرحّالة الكبير بعد أن طاف العالم، والتقى كبار الرؤساء والملوك، وشبع من الدنيا ومن فيها... ليرحل بصمت بعد أن ملأ الدنيا ضجيجاً لفترة طويلة... ولنعش معه الآن، ولنقرأ مذكراته في سجن أبو غريب مع رجال العهد الملكي العراقي من رؤساء وزراء إلى وزراء إلى قادة الجيش العراقي.

وقد لا أغالي، إن قلت، إن هذه المذكرات، من حياة الأستاذ يونس في السجن، تنطوي، على معان عميقة، وعبر بالغة، يستطيع القارىء، أن يعثر عليها، إذا ما أمعن النظر في قراءتها ولم يصرفه، ما فيها من خفة روح، ونكتة ساخرة، عن إدراك مغازيها واستخلاص معانيها العميقة.

خالد عبد المنعم العاني

ـ ١ ـ

من بيروت إلى السجن

١٤ تموز ١٩٥٨

استيقظت في الساعة السادسة من صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ على أصوات كانت تتعالى من الطابق الأرضي في منزل ابن أخي العقيد الركن وحيد صادق الجبوري وهو مساعد رئيس استخبارات الجيش العراقي الزعيم عبد المجيد حسن الذي عين أميناً للعاصمة يوم ١٤ تموز. وكنت قد وصلت إلى بغداد مع زوجتي في اليوم السابق، قادمين من بيروت، ونزلنا ضيفين عليه.

وبعد ربع ساعة طرق باب غرفتي طرقاً عنيفاً. وقبل أن أرد على الطارق فتح الباب وأطل ابن أخي وقال وهو يحملق في وجهي بعصبية ظاهرة: عمّاه لقد قام الجيش بانقلاب عسكري!.

وسكت برهة، وكأنه يحاول أن يرى تأثير عبارته عليَّ. وحدجته بنظرة فاحصة من رأسه إلى أخمص قدميه، لقد كان يرتدي بزته العسكرية الخاصة بميدان القتال. ثم ابتسم وقال:

ـ إنني ذاهب إلى وزارة الدفاع، فابق أنت هنا لترى جلية الأمر. استمع إلى إذاعة بغداد. إن صديقي العقيد عبد السلام عارف قد خاطبني تلفونياً. وطلب إليَّ باسم «مجلس قيادة الثورة» أن أذهب إلى الوزارة لأرابط في مقر إدارة الاستخبارات لتلقي الأوامر وتنفيذها. . .

كان أهل البيت بأسرهم قد التفوا حول الراديو، وهم ينصتون إلى

البيانات التي كان يذيعها العقيد عبد السلام عارف «الناطق باسم الثوار».

وعندما جلست أنا الآخر إلى جانب الراديو، كانت ساعة إذاعة بغداد تدق الساعة السادسة والنصف صباحاً.

وارتفع صوت العقيد عبدالسلام عارف من المذياع، يعلن إلغاء النظام الملكي، وقيام النظام الجمهوري، وتلا ذلك عدد من البيانات عن إحالة كبار قادة وضباط الجيش العراقي على التقاعد، وطرد بعضهم من الجيش وتعيين عدد كبير من الضباط المحالين على التقاعد في العهد الملكي في مناصب وزارية أو إدارية.

لم نكن ندري ماذا كان يجري داخل العاصمة أو خارجها. كان أهل بغداد قابعين في بيوتهم مذهولين واجمين من شدة الصدمة المفاجئة التي قلبت الموقف رأساً على عقب في خلال دقائق معدودة، بواسطة الإذاعة فقط. ولم يجرؤ أي إنسان على الخروج من داره خوفاً من الجيش الثائر. ولم يكن يدور في خلد أحد بأن «الجيش الثائر» الذي احتل الإذاعة في صباح ذلك اليوم، لم يكن قد وصل حتى إلى وزارة الدفاع في باب المعظم، بل إن سرية واحدة مؤلفة من زهاء مئة جندي، تقدمت بأمر عبد السلام عارف لاحتلال دار نوري السعيد والقبض عليه بغتة وهو يغط في نومه... بقيادة الرئيس الأول بهجت سعيد، وفي الوقت نفسه أمر الرئيس الركن عبد الستار السبع باحتلال قصر الرحاب وقتل العائلة الهاشمية المالكة بأسرها!.

لقد ظن الناس بأن الجيش العراقي بأسره هو الذي زحف على بغداد بخيله ورجاله، فكان لمباغتة الإذاعة العراقية الناس بالانقلاب بصوت العقيد عبد السلام عارف وبياناته الثورية الرسمية، الأثر المنشود في نفوس الناس!.

اعتقالي بعد ساعات من وصولي!

كنت قد وصلت بغداد مصحوباً بزوجتي ظهر يوم الأحد ١٣ تموز ١٩٥٨، هرباً من رصاص الثورة في بيروت، الذي كان يشمل داري في حي الظريف. وكان بعض رجال المقاومة الشعبية قد اتخذوا سلم داري قاعدة لنشاطهم الحربي، فقلت لزوجتي: هيا بنا إلى بغداد لنستريح من الرصاص والقنابل.

قالت: ولكن بغداد في مثل هذا الوقت من الصيف جهنم وحريق.

قلت: إن حريق بغداد أهون بكثير من رصاص بيروت.

وهكذا شاءت الأقدار أن أقع في الفخ، وصرت بالفعل كالمستجير من الرمضاء بالنار. وفي الواقع، لو لم أنتقل عصر ذلك اليوم من فندق ريجنت بالاس إلى دار ابن أخي العقيد الركن وحيد صادق الجبوري مساعد رئيس استخبارات الجيش العراقي، لكنت اليوم في عداد المسحولين الذين قضوا نحبهم في صباح ذلك اليوم العبوس القمطرير. فلقد نشرت الصحف العراقية الصادرة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨، خبر وصولي إلى بغداد، معددة الولائم والحفلات التي سيقيمها لي فلان وفلان، وذكرت أنني حللت في فندق ريجنت بالاس، وقد ألقي القبض على جميع السادة الذين كانوا سيقيمون لي الحفلات، وقصد الفندق متطوعون كثر لسحلي والتمثيل بي، ولكنهم لم يجدوني هناك فسرت إشاعة بأنني قد هربت من بغداد.

ولكن أحد أصدقائي نقل إلى شرطة بغداد بأنني موجود في دار العقيد الركن وحيد صادق الجبوري، فقام هؤلاء السادة النجب بإبلاغ الخبر إلى انضباط الجيش، فبعثوا لي الرئيس سعيد مطر، فنقلني إلى وزارة الدفاع بعد أن أقسم لي بشرفه العسكري أنني معتقل على سبيل الاحتياط إنقاذاً لحياتي، وأن سراحي سيطلق عندما تهدأ الأحوال! وأدخلت إلى مكتب عريف الخفر، ساعة وصول جثة نوري السعيد محمولة على سيارة جيب، وكانت الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١٥ تموز ١٩٥٨...

من وزارة الدفاع إلى سجن أبو غريب!

بقيت في مكتب عريف الخفر التابع للانضباط العسكري بوزارة الدفاع وأنا لاهٍ عما يدور حولي، أدخن لفافات تبغ باعني إياها العريف بثلاثة أضعاف ثمنها الرسمي، وكان العريف رجلاً مهذباً ومتأدباً يعنى بالأدب العربي وينظم الشعر، وعربياً شهماً فقال لي: أنا لا أعرف من أنت... وربما تكون أحد الوزراء، ولكن يظهر لي من هيئتك أنك ابن حلال، فهل تريد أن أدبر خروجك من هنا؟.

قلت له: يا أخي إنني لست وزيراً ولم أكن قط مسؤولاً في دولة عبد الإله أو نوري السعيد، ولقد كنت أول من هاجم نوري السعيد وعبد الإله في إذاعة برلين العربية منذ شهر نيسان ١٩٣٩.

ومع هذه الإيضاحات لم يفهم العريف حقيقة الرجل الماثل أمامه ولم يعرف اسمه، فلم أشأ أن أقول له من أنا، ما دام الأمر لا يهمه على ما يظهر فسكت.

وقبل أن نعود إلى الكلام، مر من أمام باب المكتب ضابط برتبة ملازم كنت أعرفه من مدينة الموصل، وهو شيوعي قديم قد أرخى

شاربيه. وكان شبه صديق لي أقضي له بعض حاجاته عندما يمر ببيروت. وما إن رآني حتى جمد في مكانه، واقترب مني حتى صار على بعد مترين، وبسرعة البرق الخاطف انهال عليَّ ضرباً وشتماً، وأتبع ذلك بصاقاً انهمر على وجهي وعلى رأسي، وملابسي، ثم حاول سحب مسدسه، فتصدى له العريف وقال له: أنا مسؤول عن حياة هذا الرجل، وأنا عريف الخفر، فإذا لم تذهب فإنني سألقي القبض عليك.

فذهب الضابط، واسمه مصباح الخيرو، ولم أرَ وجهه مرة ثانية إلا في سجن الأحداث حيث عين مساعداً لآمر السجن. وقد كان من حسن حظي أن الزعيم عبد الكريم قاسم قد أمر بإطلاق سراحي بكفالة أنا والزميل عادل عوني في صباح اليوم الذي وصل فيه الضابط مصباح إلى السجن، فحرق الأرم غيظاً ولكنه لم يتمكن من الشتم، وغمزته بعين ساخرة وقلت له: **ودع هريرة إن الركب مرتحل**.

ورأى بعض الجنود الضابط الخيرو وهو يضربني ويشتمني في مكتب عريف الخفر، فتجمهروا حول باب المكتب، وراحوا يصرخون بأعلى أصواتهم: هذا خائن متآمر رجعي من العهد البائد... اقتلوه! اسحلوه!.

وتشاء الصدف أن يكون آمر الانضباط العسكري في مكتبه الذي يبعد عنا أربعة أمتار فقط، فخرج ليرى مصدر هذه الضجة، فلما رآهم يحاولون الهجوم عليَّ صاح بهم بلهجة الآمر: استعدوا.

فوقفوا وقفة الاستعداد ثم صاح بهم مرة ثانية: «إلى الوراء در».

وأردف ذلك بإيعاز: «إلى الأمام سر» فساروا لا يلوون على شيء.

لقد أنقذني العقيد عبد الكريم جده آمر الانضباط العسكري من موت أكيد، إذ لم يكن بيني وبين الموت سوى ثلاثة أمتار فقط، ولكن

العناية الإلهية مدت لي العون في هذه المرة أيضاً، فللعقيد الجدة خالص شكري وتقديري، جزاه الله عني خيراً.

قلت للعقيد عبد الكريم الجدة: إلى متى سأبقى هنا؟

قال: إلى أن تخلو الشوارع من الناس، فنحن لا نملك القوات الكافية للهيمنة على هؤلاء الذين ثارت أعصابهم من مدنيين وعسكريين، وقد أصدر الحاكم العسكري أمراً بمنع التجول اعتباراً من الساعة الثامنة، أي بعد نصف ساعة فقط، فاصبر.

ـ ٢ ـ

في سجن أبو غريب

أبو غريب ضاحية من ضواحي بغداد، تنتشر فيها البساتين والمزارع لأن المياه تتوافر فيها كل فصول السنة، وهي تقع ضمن أملاك شيوخ بني تميم، ويخترقها الطريق العام الذي يصل بغداد بدمشق، وفيها المدرسة النموذجية للزراعة ومركز للمدفعية، ومعسكر للجيش العراقي أقيم على أرض سهلة شيدت عليها ثكنات ضخمة. وإلى جانب المعسكر مستشفى قديم كان ملحقاً به، فحولوه إلى معتقل إضافي تابع للسجن الأصيل الكائن في معسكر أبي غريب، وقد شيد إبان الحرب العالمية الثانية.

لم يكن مستشفى أبو غريب القديم واسعاً، فهو مؤلف من أربع غرف من الحجم المتوسط، وكل غرفة تتسع لستة أسرة صغيرة، وفيها حمام واحد مشترك، أنشئت في إحدى زواياه حفرتان كمرحاض، أما بيوت الخلاء فقد أقيمت خارج المستشفى ضمن ثلاث خيمات صغيرة صفت إلى جانبها، ووقف حولها عشرات الجنود وقد وضعوا حرابهم فوق فوهات البنادق.

وفي كل مرة نطلب فيها الخروج لقضاء حاجة، كان يقودنا جنود شاكو السلاح، فنمر وسطهم وهم يصوِّبون فوهات بنادقهم إلى صدورنا ورؤوس حرابها تكاد تلامس وجوهنا، فكيف يستطيع الإنسان منا ضبط أعصابه وقضاء حاجته في مثل ذلك الجو الرهيب؟

كانت الساعة العاشرة من مساء ١٥ تموز، **لما دخلت المعتقل في** المستشفى القديم، فلم أرَ فيه إلا رجلاً واحداً هو المرحوم سعيد قزاز وزير الداخلية فحياني قائلاً: الحمد لله على السلامة.

ثم سألني أين بقية الإخوان، فقلت: إن قسماً منهم بوزارة الدفاع، وقسم آخر في معسكر الوشاش، والباقون في الطريق إلى هنا...

وعند منتصف الليل أضيئت أنوار الغرف الأخرى، وجاء آمر المعتقل المقدم نوري حسين، وكان مرحاً يحب إطلاق النكات، فلما رآني وأنا أرتدي بيجامة سوداء، صاح مهللاً: والله يا يونس هذا هو اللباس المناسب للمشنقة.

فأجبته على الفور: يشنق عدوك يا سيادة المقدم!.

فضحك مقهقهاً ثم قال: ذوله ربعك جبناهم.

وفتح باب السجن على مصراعيه، فكان أول الداخلين الشيخ محمد العريبي الرجل الذي كان نوري السعيد يقصده للاختفاء في بيته في حي البتاويين ببغداد، ثم تبعه نائل سلطان مساعد مدير الأمن العام، ففخري الفخري أمين العاصمة، فعلي حيدر الركابي مدير نادي المنصور، فعادل عوني صاحب جريدة «الحوادث» البغدادية، فبرهان الدين باش أعيان وزير الدولة والإرشاد. وكان كل منهم يحمل على كتفه فراشه ويحمل بيده حقيبة فيها بعض الملابس والأدوات الخاصة بالحلاقة.

وزعونا على الغرف، فكان من نصيبي الغرفة رقم (٢) المتاخمة لغرفة سعيد قزاز وبرهان الدين باش أعيان. وفي الغرفة المقابلة وضع الشيخ محمد العريبي ونائل سلطان، وكانا مريضين، فقد أصيب العريبي بإسهال حاد، في حين أصيب نائل بإمساك حاد. هذا يولول من كثرة

الذهاب والإياب إلى بيت الخلاء، وذلك يصيح من عسر هضمه، فلم ينم لحظة واحدة، ولم يتركنا ننام.

كان الجميع في المعتقل ينامون على الفرشات التي جاؤوا بها، إلا أنا، فقد كان فراشي الوحيد نسخة من جريدة «**الحياة**»، اصطحبتها معي من بيروت، ووضعت حذائي تحت رأسي كمخدة.

وفي الصباح الباكر كثر الهرج والمرج في المعسكر، وكان لغرفتنا نافذة تطل على المدخل الرئيسي للسجن، فشاهدنا فوجاً جديداً من المعتقلين وهم يرسفون بالسلاسل والأغلال، ودخلوا الواحد تلو الآخر كقطيع من الغنم يساق إلى المجزرة.

إن جل هؤلاء لم يكن قد سمع طوال حياته كلمة بذيئة تقال له في حضرته، أما الآن فقد أخذ الضباط والجنود يصبون علينا شتائمهم صباً، وكلها من العيار الثقيل الذي تعافه النفس ويمجه الذوق.

لقد أذاقونا الأمرَّين في خلال الأسبوع الأول من توقيفنا في سجن أبي غريب، ولكنني كنت أهدىء من روع الرفاق، وأمنيهم بالخلاص قريباً، مؤكداً لهم بأن هذه مرحلة سنجتازها بسلام، وستكون قصة نرويها لأولادنا، ليتخذوا منها درساً وعبرة.

ورحنا نحصي الداخلين، وكنت أسجل أسماءهم على ورقة زرقاء ما زلت محتفظاً بها، وكان أول الداخلين الأستاذ كاظم الحيدري مدير إذاعة بغداد الملكية والمعلق السياسي فيها، وكان يمشي وهو يتكىء على كتفي جنديين، بينما حمل جندي ثالث فراشه ومتاعه. ثم أعقبه السيد أحمد مختار آخر رئيس وزراء في العهد الملكي، وقد استحال هذا الرجل الذي كان إلى ما قبل يومين بهيّ الطلعة، إلى شيخ طاعن في السنّ لا يكاد يسير إلا بمشقَّة.

وتبعه السيد بهجت العطية مدير الأمن العام، وكان هادئاً يسير وسيكارة «ثري فايف» لا تفارق شفتيه، وكلما انتهت سيكارة أتبعها بثانية يشعلها من عقب سابقتها، وكان كلما بصق في وجهه جندي يبتسم له وكأنه يشكره مشجعاً.

ودخل خليل كنة وزير المالية العراقية وهو يتمخطر في مشيته، مرفوع الرأس، وكأنه داخل إلى حفلة استقبال في بهو العاصمة لم يلتفت إلى أحد. ولم يُعِر الشتائم التي استقبل بها أدنى أهمية. ولعل منظره أخجل الضباط والجنود فكفّوا عن شتمه، والتفتوا إلى السيد خليل إبراهيم مدير عام مجلس وزراء الاتحاد العربي، فأغرقوه بسيل من الشتائم، وجعلوا يرجمونه بالحصى والحجارة، ولكنه كان بمعزل عما يدور حوله، فلقد عض بأسنانه على غليونه التقليدي متحملاً ألم الضرب، غير عابىء بتلك الشتائم.

وبعد لحظة دخل عبد الجبار فهمي متصرف بغداد، وقد حمل على رأسه فراشه ليتقي به الحصى والحجارة. أما الشتائم فقد كان بحكم ماضيه، في الشرطة معتاداً على سماعها، فكان يبتسم للضباط والجنود!.

وعندما أدخل السيد محمود عبد الكريم مراسل وكالة «رويتر» البريطانية في العراق، استقبل بالحملة المعهودة من الشتائم والضربات، ولكنه كان يضحك بصوت سمعناه وهو يردد متسائلاً:

ـ يا جماعة أريد أن أعرف وين موجود هالملعون يونس بحري.

فناديته قائلاً: هنا يا أعورا.

فصاح والحجارة تدغدغ جسمه، وهو يقفز من شدة الألم، هيىء لي محلاً في غرفتك...

فصحت به: حاضر.

وجاء دور الدكتور محمد حسن سلمان وزير الصحة العراقي الأسبق، فكان كلما شتموه يرفع يده بالتحية شاكراً والمسبحة بيده، وهو يمشي بتؤدة وهدوء وكأنه يسير في تشييع جنازة شخصية محترمة.

أما سامي فتاح وزير الداخلية الأسبق، وهو أمير لواء سابق في الجيش فقد عرفه الضباط والجنود. ومع أنهم لم يتعرضوا له بسوء، فلقد كان وجلاً، وما إن وصل إلى غرفتنا حتى تهاوى إلى الأرض.

ثم دخل الدكتور نديم الباجه جي، وزير الاقتصاد العراقي السابق، والخبير العالمي بشؤون النفط، وكان يسير وراءه صديقه المرح يحيى قاسم صاحب جريدة الشعب البغدادية، وقد شاء القدر أن يقيِّدا بسلسلة واحدة حتى في المعتقل، فهما صديقان حميمان قلَّ أن يفترقا.

وانقضى اليوم الثاني من حياة السجن باستعراض الشخصيات التي حكمت العراق ردحاً طويلاً من الزمن، فكانت النتيجة بالنسبة إليهم شيئاً واحداً: السجن أو الموت.

مشادّة بين الشيوعيين وأعدائهم

كانت حياتنا في سجن أبي غريب تسير على وتيرة واحدة، لولا ما كان يتخللها من فترات يحتشد فيها الضباط والجنود حول نوافذ غرفنا... فيسألوننا عن أسمائنا الواحد تلو الآخر.

وعندما علموا أن سعيد قزاز ـ عدو الشيوعية اللدود ـ هو في الغرفة المجاورة لنا، انهالوا عليه بالشتائم، وبالتهديد بالموت رمياً بالرصاص، وصاحوا به: لقد نبشنا اليوم قبر سيدك نوري السعيد الذي كان مدفوناً هنا في أبو غريب، وسلمنا جثته إلى الشعب ليسحلها ببغداد، وسنسلمك أنت أيضاً يا أيها المجرم الخائن!.

وتطلع سعيد قزاز في وجوه الضباط، فعرف أحدهم، وكان برتبة

رئيس، فصاح به قائلاً: هذا أنت يا شيوعي.. أنت عباس الدجيلي... هل هذا جزائي منك؟ ألم أنقذك من السجن؟ ألم أعطك عملاً عندما أحالوك على التقاعد؟

فأجابه الضابط عباس الدجيلي بقوله: لقد لعبت دورك القذر في مكافحة الشيوعية بدون هوادة أو لين... والآن فإننا سنلعب أدوارنا بنفس الروح التي كنتم تعاملوننا بها وأكثر.

وعندما أطلق سراحي بكفالة كان عباس الدجيلي هذا معاوناً لمدير شرطة بغداد، بطل فضيحة يسرى ثابت مع العقيد عبد المجيد كاظم، فقد اشتركا معاً في الاعتداء عليها، الأمر الذي حمل وزير الداخلية الزعيم أحمد محمد يحيى على كف يديهما عن العمل واعتقالهما، ولكن أمر هذا الاعتقال لم يطل... إذ تدخل العقيد أحمد طه الشيخ «الجندي الأحمر»، فأطلق سراحهما.

صار عددنا في الغرفة رقم (٢) في اليوم الثالث من اعتقالنا (٢٧) شخصاً، إذ وصل إلى المعتقل ضيوف جدد، كالمحامي ناظم بطرس مذيع التلفزة والإذاعة الأول، وكانوا يلقبونه بمذيع حلف بغداد، فضموه إلينا في غرفتنا.

وأدخلوا علينا السيد مالك سيف الصائبي من قدامى مؤسسي الحزب الشيوعي في بغداد، وأكثر أعضاء ذلك الحزب اطلاعاً ومعرفة عقائدية بالمبادىء اللينينية والستالينية، ولكنه ارتد عن الشيوعية بعد شنق زعيم الحزب الشيوعي العراقي «فهد» ورفاقه عام ١٩٤٨، وأصبح وكيلاً مستشاراً في إدارة الأمن العام العراقي، وكان له النصيب الأوفر في وضع «الموسوعة» الرسمية عن الشيوعية والشيوعيين في العراق والبلاد العربية وإيران.

واشترك مالك سيف أيضاً في وضع «الملف الأحمر» عن الشيوعيين العراقيين وعن الموالين والمؤيدين للحزب الشيوعي، وإن لم يكونوا أعضاء في الحزب. . .

والملف الأحمر هو على جانب عظيم من الأهمية يتخذه العقيد عبد المجيد عبد الجليل مدير الأمن العام العراقي اليوم، سلاحاً ذا حدين لتهديد الشيوعيين كلما ثارت ثورتهم.

وقد ألقي القبض على مالك سيف بسرعة، حتى أن انضباط الجيش لم يسمح له بارتداء ملابسه، فجاءنا وهو يلبس البيجاما، وليس معه فراش أو متاع.

وما إن دقت الساعة التاسعة صباحاً في ذلك اليوم حتى ساد الهرج والمرج في فناء المعسكر. وكان آمر السجن المقدم نوري حسين قد أمر بسد النوافذ والأبواب بالخشب من الخارج، فلم نعد نبصر شيئاً، وانحبس الهواء عنا. . . واكتنفتنا حرارة مذهلة، حتى صرنا نعيش بسراويلنا الداخلية فقط من شدة الحر، ونحن في ١٧ تموز ١٩٥٨ وفي بغداد المحرقة. **حقاً لقد صدق من قال: إن آب لهاب.**

وأنصتنا إلى الأصوات المتعالية في الخارج فسمعناهم يقولون: هذا توفيق السويدي. . . لقد قبضنا عليه في مزرعته وهو مختفٍ في أكوام من التبن في حظيرة.

وارتفعت فجأة أنغام المعزوفة العسكرية الجديدة، وانهالت الشتائم بسخاء منقطع النظير على وزير خارجية الاتحاد العربي ورئيس الوزارات العراقية سابقاً. لم نتمكن من مشاهدة ردة الفعل عند السيد توفيق السويدي، ولكنه لما أدخل علينا بعد ربع ساعة كانت آثار الضرب على وجهه ورأسه الأشقر بادية للعيان.

وكان السويدي، وهو المعروف بعناده وإصراره، ينكر أنه قد ضرب، وبقي مصراً على إنكاره هذا إلى أن نقلنا بعد أسبوع إلى سجن الأحداث. ولما هدأ روعه، شرح لنا دقائق قصته، وسنرويها في حينه.

وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم أيضاً، اشتد الضجيج وتدافع الجنود إلى المشاجب يحملون المدافع الرشاشة والبنادق ويتخذون مواقعهم استعداداً لطارىء هام. **وصرح أحدهم في الخارج بأن الزعيم عبدالكريم قاسم قادم لزيارة السجن** فأرهفنا السمع لتلقي الأنباء الجديدة. . . وما هي إلا لحظة حتى فتحت الأبواب الخارجية، وإذا بالعريف رسن، المولج بحراستنا، يفتح باب غرفتنا على مصراعيه وهو يقتاد أعرابياً بلحية حمراء، ويضع على عينيه نظارة سوداء وملابسه قذرة وبدون عباءة، وحذاء أقذر من أرض غرفتنا التي لم تمر عليها المكنسة منذ أجيال.

وما إن فك وثاق الأعرابي حتى قذف به عليَّ، فتلقيته بيدي، وأنا أتفرس في وجهه، فما عتمت أن عرفته، ولم أتمالك نفسي من الصراخ وأنا أبكي من شدة الفرح. وبعد برهة يسيرة سادها الوجوم، مددت يدي إليه مصافحاً: أهلاً بك يا أبا ليث!.

لقد أشاعوا بأنهم قتلوك. . . وأنهم سحلوك في بغداد!.

فقال الدكتور فاضل الجمالي بلهجته الساخرة حتى في ذلك الموقف الحرج: لقد شبه لهم. . . لقد شبه لهم. . . ولكن يا ليتهم فعلوا ذلك لتخلصت من ألم الضرب والتشنيع. . . انظروا إلى هذه الجروح في جسمي وإلى هذه الكدمات في رأسي. . . لقد استمروا في ضربي بأخمص البنادق والمسدسات منذ الساعة الخامسة حتى قبل ربع ساعة!.

وقبل أن ينهي الدكتور فاضل الجمالي عبارته تلك، فتح الباب

العريف رسن، وكان يقف وراءه المقدم نوري حسين فصاح بفاضل الجمالي: تعال معي.

وهمس الجمالي في أذني: أخاف أن يقتلوني في هذه المرة.

قلت له: توكل على الله.

وذهب الجمالي، وجعلنا نضرب الأخماس بالأسداس. وتكلم خليل كنة لأول مرة. وكان منذ أن جيء به إلى هذا المعتقل ملازماً الصمت المطلق، حتى أسميته «أبو الهول».

قال خليل كنة: أنا لا أعتقد أنهم سيقتلونه بعد الآن... لقد ضجت الصحافة العالمية والإذاعات بسبب الأنباء القائلة بمقتل الدكتور فاضل الجمالي... أما اليوم فإنهم يريدون بوجوده حياً إقامة الدليل على أنهم أبرياء من دم الجمالي والسويدي... وسيستغل اسم الجمالي أوسع استغلال هنا وفي هيئة الأمم المتحدة، حيث أبَّنَه المستر كابوت لودج أروع تأبين، واصفاً إياه بالدبلوماسي البارع.

وبعد نصف ساعة عاد الجمالي إلينا... وآثار ضربات جديدة بادية على وجهه.

قلت له: ما هذا؟

قال: وسائل إيضاح جديدة يا أستاذ!.

قلت للدكتور فاضل الجمالي: وما هي وسائل الإيضاح هذه؟

قال: إن وسائل الإيضاح اصطلاح تربوي في وزارة المعارف، فهي تعني الخرائط الجغرافية والسياسية والأثرية ومختلف صور علم الأشياء. أما الآن فوسائل الإيضاح هي توجيه الأسئلة إليَّ. وقبل أن أجيب عنها يتولى ضابط أو ضابطان ضربي، ويتولى ضابط ثالث

- بالكلام لا بالضرب - إيضاح الأجوبة التي يجب أن أقولها لهم، فتسجل على شريط جهاز مسجل لتضاف إلى ملفي!.

وضحك الدكتور الجمالي، واستطرد يقول: مثلاً، سمعوني أقول للضابط الذي اعتقلني في مزرعة السيد رشدي الجلبي أثناء نقلي بسيارة الجيب إلى هذا المعتقل: «إن هذه السلاسل التي قيدتموني بها هي أميركية، وأنا الذي طلبتها من أميركا ضمن العتاد الحربي الذي قدمته أميركا مساعدة منها للجيش العراقي». ولما استدعاني الضابط قبل نصف ساعة، قالوا لي بعد أن أشبعوني ضرباً: «أيها الخائن يا عميل الاستعمار الأميركي... إذن أنت الذي طلبت هذه السلاسل من أسيادك الأميركان لتقيد بها الشعب العراقي؟».

قلت: كلا أيها السادة، طلبتها لكيما تقيدونا بها. أفليس وجودنا في هذا المعتقل تحت رحمتكم وحراستكم الدليل الكافي على صحة ما أقول؟

«ضحكوا وطربوا لقولي هذا، وتالله لو لم أقل لهم ما قلت، وأنا أتكلف الابتسامة لما أعادوني سالماً إلى عندكم فلقد كانوا مصممين على قتلي بمختلف وسائل الإيضاح... التي لديهم... لقد رأيتها مصفوفة على منضدة آمر السجن المقدم نوري حسين: كرباج من المطاط، مقبض من الفولاذ، وقفاز تعلوه دبابيس مدببة كالقنفذ، وسياط حديدية، وعصي خيزران، وعصي «دونكي» التي تستعملها الشرطة...

«لقد علمهم رجال الشعبة الخاصة كيفية استعمال وسائل الإيضاح هذه معنا لكي نجيب بواسطتها عن الجرائم والمنكرات والخيانات الكبرى التي ارتكبناها بحق الوطن وضد مصلحة الشعب».

وما إن انتهى الدكتور الجمالي من حديثه، حتى ارتفعت أصوات

عواء وعويل من الغرفة رقم (٤) المقابلة لغرفتنا، واستمرت الأصوات تتعالى، والضجة تزداد زهاء ربع ساعة. كل ذلك ولم يتقدم أي حارس من الجنود والضباط المحتشدين خارج السجن وفي غرفة الآمر، وكأن الأمر لا يعني أحداً.

وما عتمنا أن سمعنا أصواتاً تنادي من داخل الغرفة: لقد مات! مات! مات نائل سلطان! افتحوا الأبواب! بالله عليكم يا ضباط ويا جنود افتحوا الأبواب!.

لقد مات نائل سلطان، مساعد مدير الأمن العام، الذي كان ممتلئاً صحة ونشاطاً وحيوية. مات هذه الميتة الشنيعة البشعة أمام رفاقه في الغرفة، ولم يتقدم لإسعافه طبيب أو مضمد أو جندي، بل تركوه يموت اختناقاً بعسر الهضم، إذ بقي أربعة أيام مهملاً بدون علاج، إلى أن برز الغائط من فمه فقتله!.

ولم أتمالك نفسي، فرحت أنادي بأعلى صوتي وأدقُّ على الباب والنوافذ بشدة وبإلحاح، وراح من في الغرف الأخرى يصيحون ويدقّون على الأبواب، إلى أن دخل الضباط والجنود وفتحوا الأبواب، وأخرجونا جميعاً إلى القاعة المشتركة التي تتوسطها منضدة خشبية كبيرة. وعندها تقدم أربعة من الجنود فحملوا جثة نائل سلطان الضخمة المنتفخة وألقوا بها على المنضدة. وما إن ارتطمت الجثة بالخشب الصلب حتى تفجرت معدته.

ولما أبصر السيد أحمد مختار بابان رئيس الوزارة العراقية السابق، هذا المنظر المؤلم، أغمي عليه فهرعنا إليه نرشّ على وجهه الماء، ونفرك رأسه ويديه إلى أن أفاق.

وجاء العريف رسن وهو يلهث من شدة الحرارة وانحباس الهواء

في هذه الغرف المسدودة الأبواب والنوافذ، ففي الخارج كانت درجة الحرارة تحت أشعة الشمس المحرقة ٤٦ درجة سنتيغراد، أما عندنا في داخل السجن فكانت ٤٩ درجة، ونحن في الظلّ.

وصاح العريف رسن وهو يلهث: يونس بحري! مالك سيف!.

وتقدمت إليه من بين هذه الكتل البشرية التي أضناها الخوف والسهر وشدة القلق والحر والجوع، وتقدم كذلك مالك سيف، فأخرج العريف من سلسلة مشدودة إلى نطاقه العسكري قيداً حديديًّا يسمى بالعرف العسكري «مجمع» فقيد به يدي، وكرر الأمر مع مالك سيف من دون الجميع.

لم أنبس ببنت شفة، والعريف رسن، المشرف على هذا السجن الزاخر برؤساء الوزارات وقادة الرأي والوزراء والنواب والساسة، لا يستطيع التصرف من تلقاء نفسه، ولا بد أنه تلقَّى أمراً لتنفيذ ما أقدم عليه ليغلَّ أيدينا بالأصفاد ونحن معتقلون.

وعندئذ انفجر يحيى قاسم صاحب جريدة «الشعب» ضاحكاً، فانتهره العريف رسن بقوله: إذا لا تتأدب فإن دورك سيأتي.

ـ ٣ ـ
زيارة في إثر زيارة

لم أذق أي طعام في اليومين الأولين من اعتقالي في سجن أبي غريب. بل كنت أكتفي بجرعات مزعجة من الماء الساخن، النازل علينا من القساطل الموضوعة فوق سطح السجن، حيث تلفحه أشعة الشمس المحرقة، فتبلغ حرارته درجة الغليان. . .

وكان السيد عصام مريود، نجل الزعيم السوري الشهيد أحمد مريود، قد اعتقل ووضع معنا في غرفتنا، وهو من أعز أصدقاء الأمير عبد الإله وليّ العهد السابق. وقد كان ضابطاً سابقاً في الجيش العراقي، ولما اعتزل الخدمة صار متعهداً للوازم الجيش، فنجح نجاحاً باهراً في هذا الميدان، الأمر الذي اعتبره الضباط «استغلالاً للنفوذ».

وكان عصام مريود يحمل مبلغاً كبيراً من المال في جيبه، فلما رأى أن سادة السجن لم يتفضلوا علينا بشيء من الطعام، قال لي: خذ هذه عشرة دنانير ودبر لنا طعاماً.

قلت: حسناً لنرى.

وكنا كلما أردنا قضاء حاجة، طرقنا الباب طرقاً شديداً متواصلاً، إلى أن يأتينا العريف رسن وهو يزمجر قائلاً: أزعجتمونا يا خونة. . . من أنت وماذا تريد؟.

أجبت: أنا يونس بحري، أريد الخروج إلى الحمام.

فتح العريف الباب، وما إن رآني حتى ابتسم، لقد كان يستأنس بأحاديثي ونكاتي، وكنت ألمحه من خلال شقوق الباب وهو يسترق السمع جذلاً كلما رويت للزملاء قصصاً أرفه بها عن أنفسهم.

وما إن صرت وإياه لوحدنا في الحمام قلت له يا عريف: هذه ورقة مالية فأحضر لنا طعاماً وسكاير.

قال طيب. . . ولكن إياك أن تقول كلمة لأيّ جندي أو ضابط.

واختطف من يدي الورقة المالية، وراح يعدو إلى خارج السجن، بعد أن أغلق علينا بالمزلاج فقط، فالوقت لا يتسع لإحكام غلقه بالمفتاح. لقد أطارت الورقة المالية صوابه.

وبعد عشر دقائق عاد العريف رسن وهو يحمل رزمة من «السندويشات» ولكن ما إن وضعها على الباب، حتى سمعنا مدير السجن يصيح بصوته الجهوري «تفتيش».

وبسرعة البرق الخاطف فتحت أبواب الغرف، واصطف جنود الحرس أمام الغرف، ودخل زهاء عشرة ضباط يحمل كل منهم بندقيته «تومي غن»، وقد صوبها إلى صدورنا، وكان يتقدمهم المقدم صبحي الذي قدم لنا نفسه بأنه مندوب «الزعيم» جاء للاتصال بنا وتفقد أحوالنا، وتلبية مطالبنا.

وجعل يسأل كل واحد عن اسمه وما هي مطالبه. ولما وصلني الدور، قلت له: أريد فراشاً وطعاماً، فأنا لا أملك شروى نقير. ثم أرجو الأمر برفع هذه الأغلال.

فضحك وقال: سيأتيك الفراش والطعام. . .

ثم التفت إلى مدير السجن وقال له: من الذي أمر بوضع القيد في يد هذا المعتقل؟

قال المقدم نوري حسين: لا أدري.

ثم نظر إلى العريف رسن حامل مفاتيح السجن متسائلاً، فأجاب مرتبكاً: إن الرئيس فاضل الساقي هو الذي أمرني بشد وثاق هذا المعتقل وذاك الآخر... وأشار إلى السيد مالك سيف.

وعندها أمر المقدم صبحي بفك وِثاقي ووثاق المعتقل الآخر، وابتعد عنا وهو يشتم الرئيس فاضل الساقي.



وبعد أن ذهب مندوب الزعيم عبد الكريم قاسم، ساد السكون السجن. ولكن «السندويشات» بقيت ملقاة خارج باب غرفتنا المقفل. وكان الجوع قد هدَّ حيلنا وأقضَّ مضاجعنا أكثر من الخوف، ومن جميع المفاجآت التي قد تحدث، فقد سلمنا أمرنا إلى الله، وليكن بعد ذلك الطوفان... طوفان هذه الفوضى العارمة!.

وقبل أن أمد يدي لأطرق الباب، لكي أستدعي العريف رسن ليعطينا طعامنا الملقى على الباب، فتحت الأبواب الخارجية من جديد وسمعنا وقع أقدام كثيرة تقترب من غرفتنا، وازداد الهرج والمرج. وما إن فتح الباب حتى أطلت علينا فوهات بنادق «ستن» عديدة، وارتفع صوت ضابط يتقدم مجموعة من ضباط أرقى منه رتبة، لأنه كان برتبة رئيس، والباقون كان أقلهم رتبة يحمل تاجاً على كتفه، أي رئيس أول.

قال الضابط: أين هو كاظم الحيدري؟

فرد عليه السيد الحيدري بكلمة: داعيكم.

فصب عليه الضابط وابلاً من الشتائم والمسبّات، كل هذا والضباط الملتفون حوله سكوت لا يبدون حراكاً.

وحاولت أن أغتنم الفرصة لأخذ رزمة «السندويشات» القريبة مني، فصاح بي الرئيس «السبّاب» قائلاً: مكانك، لا تتحرك وإلا مزقت جسمك بهذا الرشاش.

قلت: يا سيدي الرئيس حلمك، إن الرزمة تلك تحتوي على طعامنا، ونحن لم نتناول طعاماً منذ يومين.

قال: خذ الطعام.

وأردف ذلك بأن رفس الرزمة بحذائه، فتناثرت علينا «السندويشات»، وكأنها وزعت بنسبة عادلة.

قلت للضابط: خاف الله يا رجل!.

قال: اخرس يا خائن، يا ذنب العهد البائد... ماكو الله.

قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال: من أنت؟ وشنو اسمك؟

قلت: أنا خائن ومجرم، وذنب من أذناب العهد البائد أما إيش كان اسمي، فقد كان اسمي يونس بحري...

ضحك الضابط، فقهقه الضباط الملتفون حوله، واستمروا يضحكون زهاء نصف دقيقة...

ثم قال الضابط: إذن أنت يونس بحري؟ ولك يا «كواد»، حتى وأنت في السجن لا تخاف؟

قلت وأنا أغتنم فرصة الجو المرح: ماذا فعلت حتى أخاف؟

قال: ألا تخاف من هذا؟

وأشار إلى رشاشه، فقلت هيا أطلق رصاصك عليَّ وخلصني من هذه الحياة التعسة المشينة!.

ثم قلت له: اسمح لي سيادتك، فأنا جائع.

ورحت أقضم قطعة السندويش وأنا لا ألوي على شيء وقبل أن أزدرد اللقمة الثانية دوَّى طلق ناري شارد في الغرفة، فتمدد على الأرض كل من فيها من المعتقلين. غير أنني بقيت ممسكاً بقطعة السندويش أقضمها وكأن الأمر لا يعنيني.

وما إن ابتعد صوت الخطى العسكرية عنا، حتى نهضنا ونحن نحمد الله على حسن العاقبة، وأقبل عليَّ رفاق المعتقل وهم يشكرونني على تحويل موقف الضباط الجدِّي إلى رواية هزلية. قلت له: يا جماعة إن الحياة برمتها مهزلة، ولولا ذلك لكانت الرصاصات التي وجهت قبل لحظات إلى سقف الغرفة... قد سددت إلى صدورنا.

وكان هذا اللقاء أول تعارف بيننا وبين الرئيس فاضل الساقي مساعد العقيد عبد السلام عارف، والضابط الذي احتل البلاط الملكي يوم ١٤ تموز ١٩٥٨...



مر يوم ١٨ تموز ١٩٥٨ بسلام. وقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم وراء الأفق البعيد، سمعنا أوامر جديدة يلقيها أحدهم على مدير السجن المقدم نوري، وهو يجيب على كل أمر بقوله: نعم سيدي! طيب سيدي! أمرك سيدي!.

وبعد ربع ساعة، دخل علينا المقدم نوري حسين وهو يضحك، ودخل وراءه نجار يحمل عدته بأكملها، وراح النجار يخلع الأخشاب

التي كانت تسد النوافذ. ولأول مرة لفحت وجوهنا وأجسامنا نسمات الهواء المنعشة منذ أن اعتقلنا...

وجاء العريف رسن، وشاربه الستاليني يرقص على شفتيه من شدة الضحك، وهو يحمل طشتاً وضع فيه ثلجاً وماء. وقال المقدم نوري: هوذا الهواء البارد والماء المثلج والطعام، فماذا تريدون أكثر من هذا كله؟

قلت: الحرية.

قال وهو يضحك ساخراً: كل شيء إلا هذا.. بعد وكت..

قلت كل شيء زائل، ولا يبقى إلا وجه ربك الكريم.

قال: سأبعث إليكم الملازم ضياء، فليعطه كل منكم رقم تلفونه لنتصل بأهلكم وذويكم ليأتوكم بما تريدون من أكل وشراب وسكائر وملابس وفراش. ولكن الأسرّة ممنوعة إلى إشعار آخر. هذه أوامر الزعيم. وسنعتبركم سجناء سياسيين غير مذنبين إلى أن تجري محاكمتكم، وساعتئذ تبيض وجوه وتسود وجوه.

ولأول مرة يتكلم توفيق السويدي، فقال: يا سعادة المقدم، العدل أساس الملك.

فأجاب المقدم نوري: هذا صحيح، ولكنكم لو حكمتم بالعدل لما قمنا بهذه الثورة ولما اعتقلناكم. ثم إن كلمة سعادة ومعالي ممنوع استعمالها بعد الآن، وإن كلمة «سيادة» هي المستعملة.

قال السويدي الذي جمع جرأته، واستعاد حيلته المعهودة: إننا تحت تصرفكم، وستقول العدالة كلمتها فينا وسيحكم التاريخ!.

وعندها تدخل المرحوم سعيد قزاز في الموضوع فقال بلهجته

الكردية: تكلم عن نفسك وحدك يا أستاذ سويدي. أما أنا فإنني مسؤول عن أعمالي كلها.

فأجاب السويدي: أنت تدري يا سعيد بك أن الحكم كان يديره عبد الإله ونوري، أما نحن وبقية الرؤساء والوزراء، فلم نكن سوى أحجار شطرنج، ينقلانها حيث ومتى يريدان.

وعندها احتدّ سعيد قزاز، وهبّ واقفاً وهو ينظر بغضب إلى توفيق السويدي، ونسي أنه معتقل وقال بحدة وإصرار:

ـ هذا كذب وافتراء بالنسبة لي ولبعض الوزراء الذين أعرفهم وتعرفهم أنت جيداً مثلي. فأنا عندما أضطلع بالمسؤولية لا أعرف عبد الإله ولا نوري، بل أعرف واجبي ومسؤوليتي، والآن وأنا معتقل، أقول أمام الله والناس إن هؤلاء جميعاً ليسوا بمسؤولين، بل المسؤول أنا وحدي عنهم على الأقل.

وأشار بيده إلى متصرف بغداد عبد الجبار فهمي وإلى بهجة العطية وإلى بقية الموظفين التابعين لوزارة الداخلية من متصرفي الألوية ومدراء الشرطة وأمانة العاصمة والبلديات.

ولما رأى المقدم نوري بأن النقاش قد احتدم، نادى على الملازم ضياء وقال له: هيا اكتب أرقام تلفونات «الجماعة» ومطالبهم.

بعد زوال الثقة المتبادلة

كان عدد المعتقلين في ازدياد. وما إن مر اليوم الخامس على اعتقالنا حتى أصبح مجموعنا (١٠٤) أشخاص كلنا من المدنيين، وهذا العدد هو ما تضمنته القائمة الأولى التي نشرت بأسماء كبار المعتقلين من رؤساء وزارات ووزراء وأعيان ونواب وساسة. ولم يكن بينهم من الصحفيين سوى عادل عوني صاحب جريدة «الحوادث» ويحيى قاسم

صاحب جريدة «الشعب» البغداديتين، وكاتب هذه السطور. . .

لقد أصدرت حكومة الثورة القائمة الأولى والأخيرة بأسماء المعتقلين المئة والأربعة، وعلى رأسها اسم المرحوم سعيد قزاز وزير الداخلية الأخير في العهد الملكي، وهو يحمل رقم (١)، أما الاسم الذي تلاه فكان اسمي أنا. أي أنني الرقم الثاني في الجريمة والخيانة والتآمر. ولقد أثار رقمي هذا جدلاً ونقاشاً بين رؤساء الوزارات والوزراء، إذ كيف أعطى مثل هذا الشرف العظيم حتى في قائمة أسماء المعتقلين؟

وقد تبين بعدما نقلنا إلى سجن الأحداث ببغداد، أن تلك الأرقام كانت أرقام التسلسل في دخول المعتقلين إلى سجن أبي غريب، إذ إن سعيد قزاز كان أول من دخله، وكنت ثاني الداخلين إليه.

وأخذنا نتعود حياة المتعقل بعد زوال الرهبة المروعة التي شملت الجميع ضباطاً وجنوداً ومعتقلين سواء بسواء. فلقد كان العسكريون يتوقعون قيام حملة مضادة من ذوي المعتقلين أو على الأقل من أنصار العهد الملكي، وهم دون شك أكثرية ساحقة في العراق. ولكن مجزرة قصر الرحاب ومجزرة بغداد التي تلتها في خلال اليومين الأول والثاني من الثورة الدامية قد أثرتا تأثيراً شديداً في أعصاب جميع الفرقاء، من مؤيدي الثورة والقائمين بها ومن خصومها. بل حتى من أولئك الذين وقفوا موقف المحايد في تلك المرحلة المفجعة في تاريخ العراق السياسي الحديث.

كنا ونحن في السجن أكثر اطمئناناً من أي فرد في الخارج. فلقد تساوى في الخوف والفزع والهلع المدنيون والعسكريون. والثقة المتبادلة بين العسكريين والمدنيين، التي كانت سائدة قبل ١٤ تموز قد زالت نهائياً واندثرت معالمها، وحل محلها التنكر والحقد والكراهية،

والتخوف من رد الفعل. وهذا أمر طبيعي في أحوال كهذه.

يقيناً، لقد صدق من قال: راحت السكرة، وجاءت الفكرة.

فإن نشوة ما سمي بالنصر بعد مجزرة قصر الرحاب، ومجزرة بغداد، قد أسكرت الذين قدِّر لهم أن يشتركوا في تينك المجزرتين. ولكن تلك النشوة ما عتمت أن خبا أوارها بمرور الأيام، فهدأت الأعصاب الثائرة، وإذا بالهوَّة السحيقة تفصل بين أولئك وهؤلاء!.

لقد شعرنا ونحن في السجن بهذه الهوَّة، بل أحسسنا بها قولاً وعملاً، ففي العشرين من تموز صار المقدم نوري حسين مدير السجن يناديني: «أستاذ»!.

وراح العريف رسن يلبي طلبات السيد أحمد مختار بابان ويردفها بكلمة: نعم باشا! أمرك باشا!.

هذه الكلمات والبوادر والمظاهر تشير بمجموعها إلى أن «التفكير» قد حل محل النشوة بالنصر، وبأن مجرد اعتقال (١٠٤) أشخاص من رجال السياسة في العراق لا يعني أن العراق بعرضه وبطوله قد تبدل أو تغير، أو أنه أصبح شيئاً جديداً لا علاقة له بالماضي القريب والقريب جداً.

إنني وأنا أسجل هذه الأحداث والحوادث والتطورات التي جرت داخل السجن وخارجه، أكتب عن أناس هم في قيد الحياة جميعاً، وأكثرهم قد أصبحوا مثلي ينعمون بالحرية في العراق، أو في خارج وادي الرافدين.

فليعذرني زملائي في القيود والأغلال إذا ما كتبت الحقيقة عن هذه الفترة، وعن الذين لا يزالون مقيمين وراء الأسلاك الشائكة والقضبان الحديدية، فأنا لا أقصد الإساءة إلى أحد، بل أقصد مجرد تسجيل

الحقيقة: والحقيقة التي عشناها ومررنا بها في حقبة طويلة من الدهر، كانت بالنسبة إلينا ـ نحن الذين تحملنا الإهانات والمذلة والامتهان والاحتقار ـ شيئاً مذكوراً. إن الكرامة في هذه الدنيا الفانية هي القصد من الوجود، فإذا ما فقد المرء كرامته فإن معنى الوجود يصير أتفه من قرد يقبع وراء قضبان قفصه الحديدي، يتلقى فتات الطعام من المتفرجين عليه.

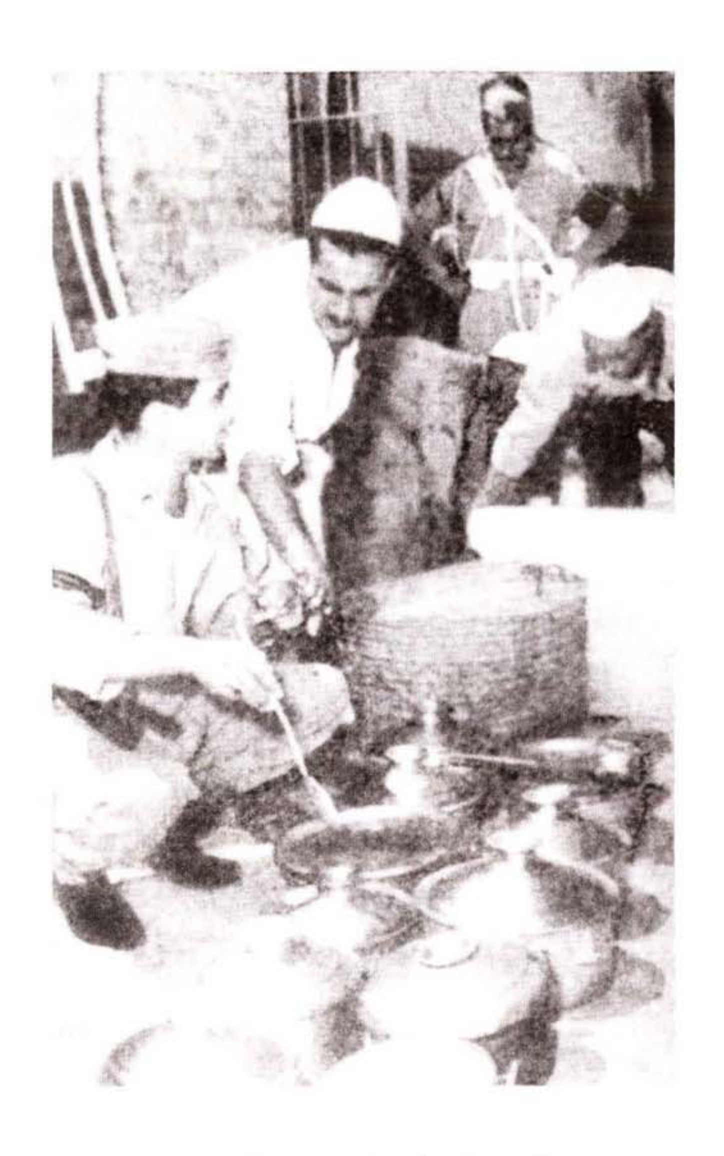
إن المذلة والهوان أمران عظيمان يقف أمامهما الموت خاسئاً وهو حسير، فالموت رمياً بالرصاص أمر لا يشعر به المرء إلا وقد حصل، والموت شنقاً لا يتعدى دقائق قليلة من العذاب النفسي بين رؤية المشنقة والصعود إليها.

أما المذلة التي يعانيها الإنسان في كل دقيقة، وفي كل ساعة، وفي كل يوم، طيلة أشهر عديدة لا نهاية لها ولا يعرف مداها وحدودها ونهايتها، فهي التنكر التام للقيم الإنسانية والاستهانة القصوى بالحرية الفردية، وخاصة إذا كان الإذلال متعمداً وعن سابق إصرار وقصد.

لقد تحملنا المذلة والمهانة كلما دار عقرب الساعة، ليسجل الدقائق والساعات والأيام والأسابيع والشهور بصبر وثبات وإيمان، لعلمنا بأننا لم نرتكب أمراً إدًّا، ولم نقم بأي عمل ضد المصلحة العربية والأخوة الإسلامية.

هذا فيما يخصني أنا على الأقل...

فما أنا إلا من غزيَّة أن غوت   غويت.. وأن ترشد غزيَّة أرشدِ



العريف رسن يتفقد الطعام قبل توزيعه علينا

أصبح رسن... رئيس عرفاء!

كان اليوم السادس الذي مر علينا في السجن هو يوم ٢١ تموز ١٩٥٨، أي اليوم السابع للثورة العراقية، يوماً غريباً متناقضاً بأحداثه. فما إن انتهينا من عمليات الاغتسال وتناول الشاي والكنس والتنظيف، حتى أطلّ علينا العريف رسن بشاربه الستاليني الكثيف وهو يتمخطر في مشيته، ويصفر نشيداً أجنبياً خيل إليَّ أنني قد سمعته من قبل.

سألت العريف رسن بعد أن صبحته بالخير، كما يفعل الحاجب مع أي رئيس وزراء محترم: ما هذا النشيد الذي تصفره؟.

قال: حقاً إنكم معاشر الإقطاعيين والرأسماليين جهلة! ألا تعرف نشيد الشعوب المتحررة؟ إنه نشيد الكادحين في الأرض الذي نقول في مطلعه: «سنمضي سنمضي إلى ما نريد... وطن حر وشعب سعيد!».

قلت: شكراً يا عريف رسن. لقد زدتني علماً، ففوق كل ذي علم عليم!.

قال العريف: أرجوك ألا تسميني «عريفاً» بعد الآن، فلقد رفعت درجتي وصرت اليوم رئيساً للعرفاء!.

فناديت المعتقلين وأعلمتهم بنبأ ترقية العريف رسن، فانهالت عليه التهاني، واقترحت تقديم هدية مشتركة إليه. ولما سألته ماذا يريد، أجاب ضاحكاً: يابا چم فلس وخلصونا...

أما أنا فلقد رويت له قصة «العريف» «باتيستا» الذي أشعل نيران الثورة في كوبا، وصار بعد انتصاره ديكتاتوراً حكم كوبا عشرة أعوام. ولما انتصر عليه فيديل كاسترو فر هارباً إلى الولايات المتحدة.

لقد كانت قصتي هذه أعظم هدية تلقاها رئيس العرفاء رسن في حياته، فلقد أيقظت شعوره الداخلي وغروره... فبعد أن فتل شاربه الأيسر انكبّ على أذني ليهمس فيها قائلاً:

ـ داد يونس هذه قصة عجيبة... فإذا كان «عريفاً» مثل باتيستا يحكم شعباً مثل كوبا عشرة أعوام... فما بالي وأنا الآن رئيس عرفاء؟...

قلت: يا ريس، إنك تتمتع بجميع الصفات التي تؤهلك للحكم!.

قال: كيف؟.

قلت: إن الذي يستطيع أن يحكم هذا العدد الضخم من رؤساء الوزارات والوزراء والأعيان والنواب والصحفيين ويرضيهم ويؤنسهم، ألا يستطيع أن يحكم الشعب الذي كان هؤلاء المعتقلون يحكمونه منذ ٣٨ عاماً؟.

قصة باتيستا تحدث ثورة

وانتشرت قصة «العريف» باتيستا في معسكر أبي غريب انتشار النار في الهشيم اليابس بين الضباط والجنود، وانتقلت بسرعة البرق الخاطف في مختلف معسكرات الجيش عامة وفي وزارة الدفاع خاصة، وراح كل عريف يعتني بهندامه ويمعن في تلميع أزراره النحاسية وحذائه!.

وصار الجنود يتوافدون زرافات ووحداناً لمشاهدتي من وراء قضبان النوافذ، فلقد سمح لنا رئيس العرفاء رسن بالوقوف أمامها

ومحادثة من نشاء من الضباط والجنود الذين يسمح لهم بالاقتراب من الأسلاك الشائكة التي تبعد ٣ أمتار عن معتقلنا. . .

لقد زارنا من وراء الأسلاك والقضبان أكثر من (٥٠٠) ضابط وعريف وجندي في خلال ساعتين. وما إن دقت الساعة الحادية عشرة حتى دخل المقدم نوري حسين وهو عابس الوجه مقطَّب الجبين، وانتهر المرحوم سعيد قزاز الذي كان يتكلم باللغة الكردية مع أحد الضباط الأكراد. ثم التفت إليَّ وهو يقول: إن زوجتك بالباب قد أحضرت لك ملابس وفراشاً وأمتعة فلا تخاطبها أنت. دعها تتكلم، ولا تجب إلا بنعم أو لا!.

ومشيت مع المقدم نوري إلى الباب. ولأول مرة رأيت فيها زوجتي منذ اعتقالي قبل أسبوع، وكانت هذه الزيارة أول زيارة تقوم بها امرأة للسجن!.

وبعد أن أخبرتني بالذي تريد، قلت لها: يجب أن تعودي إلى لبنان بدون إبطاء. . . إنني لاحق بك إن شاء الله قريباً!.

وانصرفت زوجتي. وما إن عدت وأنا أحمل فراشي وأمتعتي وحقيبة ملابسي حتى دوّى صوت المقدم نوري حسين ينادي من وراء الباب الداخلي: يونس بحري! البس كاملاً.

قال ذلك، وبعث إليَّ رئيس العرفاء رسن ليفك القيد من يديّ لكي أستطيع ارتداء ملابسي. وقادني رسن إلى مكتب مدير السجن حيث كان الرئيس سعيد مطر من هيئة الانضباط العسكري، وهو الذي اعتقلني يوم ١٥ تموز ١٩٥٨، ومعه ضابط آخر وأربعة جنود.

قال المقدم نوري: إن وزير الداخلية ونائب القائد العام قد طلبك، وسيأخذك الرئيس مطر إلى هناك.



العقيد عبد السلام عارف قائد مجزرة قصر الرحاب في ١٤ تموز ١٩٥٨
الذي أذاع بنفسه البيان الأول للانقلاب

ترى، ماذا يريد مني عد السلام عارف؟

أومأت بالموافقة، وركبنا سيارة جيب عسكرية حيث جلست بين السائق، وهو عريف، وبين الرئيس سعيد، ووقف وراءنا الجنود الأربعة والضابط، وقد وجهوا إلى ظهورنا فوهات مدافعهم الرشاشة.

كانت شوارع الكرخ والرصافة التي مررنا بها في طريقنا إلى وزارة الداخلية تبدو هادئة، ولكن الوجوم يسود المارة والباعة على طول الطريق، والناس يتطلعون ببلاهة إلى سيارتنا «الجيب» المكشوفة، وكأن منظر الجنود الواقفين بمدافعهم الرشاشة المشرعة أمر طبيعي لا يهم أي إنسان ولا يثير الفضول.

وما إن وصلنا الوزارة وأصبحنا على باب وزير الداخلية، حتى فتح الباب على مصراعيه قبل أن يطرق الرئيس مطر الباب، وصاح بنا صوت مرافق الوزير: ادخلوا.

كان العقيد عبد السلام عارف واقفاً وراء المنضدة الكبيرة التي أمر بصنعها السيد رشيد عالي الكيلاني لما كان وزيراً للداخلية بوزارة المرحوم السيد ياسين الهاشمي في سنة ١٩٣٥. وقد تعاقب عليها وزراء الداخلية منذ ذلك الوقت، حتى جاء دور أول وزير للداخلية في العهد الجمهوري ليجلس أمامها.

وفي الواقع فإن جل وزراء الداخلية الذين جلسوا حول هذه المنضدة المشؤومة قد نكبوا إما بحياتهم أو برزقهم، أو بسمعتهم.

فما إن عمل عليها رشيد عالي الكيلاني بضعة أشهر حتى نفي وأبعد عن العراق. ولما أعقبه السيد حكمت سليمان للعمل عليها كوزير للداخلية، قتل بكر صدقي بعد تسعة أشهر من حكمه فأقيل الوزير من منصبه، ثم اعتقل.

ولم يهنأ بالعمل على هذه المنضدة السيد عمر نظمي الذي جاء بعده، وكذلك السيد ناجي شوكت الذي تلاه بوزارة الداخلية. وكانت نتيجة العمل على هذه المنضدة المشؤومة هروب ناجي شوكت من العراق إلى تركيا فإيطاليا وألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية. وقصة المرحوم سعيد قزاز كنتيجة للعمل على هذه المنضدة معروفة، فلقد قادته إلى المشنقة.

تذكرت هذه السلسلة من الأحداث المشؤومة وأنا أتطلع إلى المنضدة كالمسعور.. فسألني الوزير وهو ينظر إليَّ بدهشة:

ـ لماذا تنظر إلى هذه المنضدة هكذا؟

قلت: اسمح لي سيادتك أن أقول بصراحة إن هذه المنضدة مشؤومة.

قال: لماذا؟

فرويت له قصتها بإيجاز، فامتقع لونه... وفغر فاه، وشهدت شفته العليا وهي ترتعش بوضوح، وراح بدوره يتطلع إلى المنضدة تطلع الرجل الذي صدقت أذناه ما سمع.

وهكذا كسبت الجولة الأولى في موقفي الدقيق مع هذا الرجل الذي كان لولب ثورة ١٤ تموز ومنفذها «الأوحد». فما كان منه إلا أن جلس على مقعد أمام المنضدة، وأشار إلى المقعد المتاخم له وقال لي بصوت مرتجف: اجلس.

فجلست، وأنا أنظر إليه كمنوِّم مغناطيسي يحاول أن ينوِّم وسيطاً عنيداً. بيد أن محاولتي كانت أسهل مما كنت قد تصورت من قبل...

لقد تناسىٰ العقيد عارف الموضوع الذي استقدمني من أجله، والذي كنت أجهله بالطبع. ولكن شعوراً داخلياً أوحى لي بأن أمثل معه



السيد أحمد مختار بابان آخر رئيس وزراء العهد الملكي كان معنا في السجن

ذلك الدور لأخفف من حدته، وأحول تركيز تفكيره على ناحية تضعف أعصابه وتدخل الشك إلى نفسه، خاصة بعدما سمعت من كثيرين يعرفونه من وزراء العراق المعتقلين معنا عن كثرة وساوسه وشكوكه وتردده، وسرعة تصديقه لما يسمع!.

وبقدرة قادر، تحول هذا الضابط المتحفز المشاكس إلى حمل وديع. جلس إلى جانبي كتلميذ مهذب يوجه إلى أستاذه أسئلة غير منتظمة عن مختلف وزراء داخلية العهد الملكي الذين سبقوه في هذا المكان وعملوا على تلك المنضدة المشؤومة الماثلة أمامنا.

وقد ركز أسئلته على وزيرين سابقين للداخلية: أولهما رشيد عالي الكيلاني، والثاني أمير اللواء المتقاعد سامي فتاح!.

واتضح لي من شكل أسئلته أنه كان شغوفاً برشيد عالي الكيلاني، ويحبه حباً جماً يقرب من العبادة، في حين أنه كان يكره سامي فتاح كرهاً شديداً مفعماً بالمقت والازدراء.

وصفت له أعمال الرجلين ومراحل أدوارهما في الداخلية زهاء ساعة كاملة، وهو ينصت إليَّ بإمعان مطالباً بالمزيد. ولو لم يدخل المرافق لينبه العقيد عارف وزير الداخلية إلى أن السفير البريطاني قد حضر، لما سمح لي بالذهاب.

ولما جاء الرئيس مطر يقتادني، تذكر العقيد عارف الموضوع الذي استدعاني من أجله، فقال وهو يربت على كتفي بعصاه العسكرية: يا يونس أرجوك اترك قصة «العريف» باتيستا دكتاتور كوبا...

قلت: أمرك يا سيادة العقيد.

قال: مع السلامة وفي أمان الله، سننظر في موضوعك قريباً، وإلى اللقاء.



ـ ٤ ـ

من المعتقل إلى السجن

كانت الساعة تدق الثانية لما أعادوني إلى سجن أبي غريب، فرأيت العمل حول السجن يدور بسرعة لإنشاء ساحة تكفي لاستيعاب أكثر من (٢٠٠) معتقل، يمكن القيام فيها بألعاب رياضية، والتجول نهاراً للترفيه بعض الشيء عن المعتقلين الذين اختنقوا من شدة الحر داخل الغرف العفنة المقفلة.

وما إن دخلت الغرفة حتى احتاطني رفاق السجن وأمطروني بمختلف الأسئلة عما حدث لي: لماذا طلبوك؟ وماذا جرى؟.

لقد كنت أول معتقل يستدعى إلى خارج السجن، بعد أن استدعي الحاج محمود الاسترابادي وأولاده الثلاثة الذين اختفى عندهم نوري السعيد ليلة ١٥ تموز. ولكن الاسترابادي لم يعد إلى السجن هو وأولاده بعد أن حكمت عليهم المحكمة العرفية العسكرية بالسجن ثلاثة أعوام.

رويت لهم قصة العريف باتيستا دكتاتور كوبا، وكان ما يزال وقتئذ قائماً على دست الحكم، وقلت لهم إن وزير الداخلية أمرني بعدم تكرار ذكرها للضباط والجنود.

فقال السيد أحمد مختار بابان وهو يبتسم: وكيف تكرر ذكرها لنا الآن؟

قلت: إننا لسنا ضباطاً هنا ولا جنوداً، بل مدنيين، فلن يدعو

أحدنا إلى القيام بثورة جديدة على طريقة باتيستا.

وبينما كنا نتحدث ونستمع إلى آراء مالك سيف في الشيوعية ومشاكلها العقائدية المتناقضة، ونحن نمتع الطرف بمشاهدة العمل الجاري حولنا للترفيه عنا من عناء هذا السجن الملعون، دوى صوت المقدم نوري حسين منادياً: تفتيش.

خرجنا من الغرف، واصطف أصحاب كل غرفة أمام غرفتهم في صفين مزدوجين، ودخل علينا زهاء عشرين ضابطاً يحمل كل منهم مدفعاً رشاشاً ويتقدمهم ضابط برتبة رئيس، يظهر من تصرفاته بأنه كان صاحب الأمر في هذه المجموعة من الضباط، حتى أن المقدم نوري حسين كان يقف أمامه وقفة الاستعداد والاحترام.

وقف الرئيس في منتصف القاعة ووجَّه كلامه إلى المقدم نوري قائلاً: المجموع؟

فأجاب: (١٠٤) معتقلين.

ثم قدم له قائمة مرقمة بأسمائنا، فتناولها وراح يقرأ الأسماء بصوت مرتفع، وكان كل واحد منا يجيب بكلمة موجود. ولما انتهى من مطابقة الأسماء على الموجودين قال لنا:

ـ البسوا كاملاً واحزموا أمتعتكم، واستعدوا جميعاً.

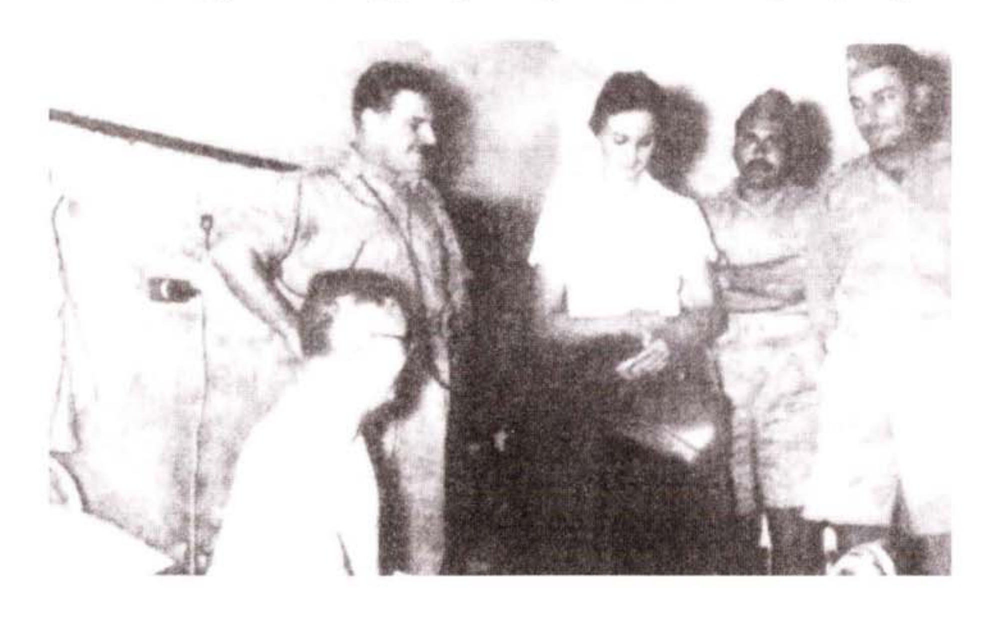
ثم خرج الرئيس وخرج وراءه الضباط والجنود. وكانت الساعة قد دقت الخامسة لما تلقينا الأمر بحزم أمتعتنا. ولم تمض نصف ساعة حتى كنا على أتم استعداد، وجلس كل منا على حزمة حوائجه، ونحن نتبادل الأسئلة، ضاربين الأخماس بالأسداس: إلى أين سيذهبون بنا؟.

إنهم يقيمون الأسلاك الشائكة ويشيدون المسابح والمراحيض لإقامتنا الطويلة في هذا المكان، فما الذي حدث بمثل هذه السرعة المذهلة لنقلنا من هنا؟ فهل هي رحلة إلى المجهول؟

إن مصيرنا لم يعد يهمّ أي إنسان في خارج السجن، فلماذا تقرر نقلنا؟ أتراهم يعتزمون إبادتنا؟

هذا سؤال وجهه إليَّ برهان الدين باش أعيان، فأجبته على مسمع من الجميع قائلاً: ثم ماذا؟ إننا أسرى هنا أو في مكان آخر، ففي استطاعتهم أن يفعلوا بنا ما يحلو لهم، فعلام التساؤل يا رفاق؟ إن التساؤل لن يغير من الأمر الواقع شيئاً، فلنسلم أمرنا لله ففي يده وحده مفاتيح الخير. إن للباطل جولة. وللحق جولات، فاصبروا وصابروا والعاقبة للصابرين.

ومرت الساعات تترى، ونحن ننتظر عبثاً عودة الضباط لأخذنا. ولقد انتظرنا زهاء سبع ساعات، أي من الساعة الخامسة بعد الظهر حتى منتصف الليل. وعندئذ دبت الحركة في الخارج. فامتلأت الساحة الواسعة أمام السجن بالدبابات والسيارات المصفحة، واصطفت في شكل دائرة حول ١٢ سيارة شحن عسكرية كبيرة، وقف حولها زهاء ٥٠٠



الدكتور فاضل الجمالي رئيس وزراء العراق السابق يتحدث إلى صحفية أجنبية بعد إلقاء القبض عليه بعد ثورة ١٤ تموز

جندي شاكي السلاح، وقد وضعوا حرابهم على رؤوس بنادقهم.

ثم جاء الرئيس المجهول الذي يقود هذه الحملة، ووراءه عدد من الضباط والجنود، وهم يحملون السلاسل والأغلال، ووقفوا عند مدخل السجن، وراح الرئيس المجهول ينادينا بأسمائنا، ليشد كل اثنين بسلسلة واحدة بأرجلنا، ويقيد أيدينا بأيدي رفاقنا في هذه الرحلة، وتم توزيعنا كل عشرة في سيارة شحن. وكان على كل واحد منا أن يحمل حزمة أمتعته بيديه المقيدتين بالسلاسل.

والذي روحي بيده، لا أعرف حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الذكريات الأليمة، كيف استطاع أن يحمل كل واحد منا فراشه وأمتعته، ونحن نرسف بالسلاسل، وأيدينا مغلولة. ولكن الخوف هو الذي ولد فينا روح المقاومة، وتحمل كل منا ما لا طاقة له به، بالرغم من انهيار أعصابنا التي أضناها طول الانتظار، وأعياها الشعور بالهلع من المصير المجهول في هزيع هذه الليلة السوداء الكالحة، في هذا الجو الرهيب المفعم بالبنادق والحراب الموجهة إلى صدورنا وظهورنا..

وراح الجنود يحملوننا ليقذفوا بنا إلى داخل سيارات الشحن المترادفة، وقد أحاط بنا جنود آخرون وقفوا حول أطراف السيارات، وعيونهم تقدح ناراً وشرراً، وكأننا أحقر من عرفوا من المجرمين الذين لا يستحقون الحياة، حتى في مثل هذه الحالة التعسة القذرة، التي أوقعنا نحس الطالع فيها.

وألقينا داخل سيارات الشحن العسكرية كأكوام من الجثث الحية، متراكمة بعضها فوق بعض، وأصبح الصحفي يجلس متربعاً على أكتاف صاحب الفخامة رئيس الوزارة، والمدير العام يدوس بقدمه وزيراً خطيراً كان حتى قبل سبعة أيام فقط يأمر فيطاع، ويستطيع بجرّة قلم أن يقيل أو يطرد أكبر رأس في هذا الجيش الذي يسوقه جنوده اليوم بحرابهم إلى

المعتقلات والسجون، كما يسوق القصاب قطعان الغنم إلى المجزرة.

واستمرت عملية الشحن زهاء ساعة كاملة، وأنين المرضى من المعتقلين يختلط مع أزيز المحركات الذي لم ينقطع منذ أن ألقوا بنا داخل هذه السيارات القذرة، التي تنبعث منها روائح كريهة ناجمة عن الدماء المتجمدة على أرضها، لأن هذه السيارات تستخدم لنقل اللحوم إلى مطابخ ثكنات الجيش.

وتحرك الموكب العجيب، وبعد ساعة من سير متقطع وقفت السيارات فأنزلونا، وإذا بنا نقف أمام المدخل الجانبي لسجن الأحداث المتفرع من سجن بغداد الكبير، وهو واقع في الباب المعظم، مقابل مبنى وزارة الخارجية العراقية.



ـ ٥ ـ

في سجن بغداد

كان الرئيس المجهول يقود الركب إلى داخل سجن الأحداث، وهذا السجن مؤلف من باحة كبيرة مجوفة، يحيط بها من جهاتها الأربع رصيف يعلوها زهاء المتر، وفيه ثلاثة «قواويش».

والقاووش كلمة تركية عسكرية، تعني غرفة كبيرة تكفي لاستيعاب (٢٥) شخصاً، ولكنهم حشروا في كل «قاووش» (٣٥) شخصاً. وما إن انتهى توزيع المعتقلين على الغرف الثلاث، حتى ناداني الرئيس المجهول باسمي قائلاً: احمل فراشك وأمتعتك واتبعني.

فامتثلت للأمر وأعين المعتقلين تتبعني بخوف ووجل، فاقتادني إلى غرفة صغيرة تقع عند مدخل سجن الأحداث، وهي غرفة خاصة بمعاقبة السجناء الذين يرتكبون جرائم إضافية داخل السجن. ويبلغ طول الغرفة ثلاثة أمتار وعرضها متراً ونصف المتر. . .

وأمرني بدخول هذه الغرفة، وأقفل بابها المؤلف من قضبان من الحديد المتقاطع، فحمدت الله على أن الباب لم يكن خشبياً، وإلا لما شممت رائحة الهواء. وكان في إحدى زوايا الغرفة «تنكة» نفط خالية لا بد أن تكون قد وضعت هناك لقضاء الحاجة وإلى جانبها إبريق ماء للشرب.

استلقيت على فراشي وأنا أدخن سيكارة «لوكي» أميركية، وكأنني

نزيل فندق السان جورج ببيروت، وكأن هؤلاء الضباط والجنود الذين يروحون ويغدون من أمام باب غرفتي المكشوف ليسوا في العير ولا في النفير.

وبعد ساعة من الزمن عاد الرئيس المجهول وفتح باب غرفتي الموصد من الخارج ودفع بزميلي الشيوعي السابق مالك سيف إلى داخل الغرفة، ثم أقفلها علينا نحن الاثنين.

لم أكن بحاجة لكي أسأله عن سبب حجزنا في هذه الغرفة، فلقد بدا لي أنني ومالك سيف هذا سنقتسم المصير منذ الآن. . .



عبد الوهاب مرجان رئيس الوزارة العراقية الأسبق في العهد الملكي كان معنا في السجن

كانت المصابيح الكهربائية في غرفتنا تبقى مضيئة ليلاً ونهاراً لتسهل على الحراس الجنود مهمة الحراسة. وكانت سرية الحراسة تتمركز في الفناء الخارجي لسجننا أمام المدخل على بعد ثلاثة أمتار من غرفتنا. وكانت سلوتنا الكبرى ونحن نربض في هذا القفص كما تربض الكلاب المربوطة أمام مداخل القصور، أن نشاهد الجنود وهم يمسحون أسلحتهم وأحذيتهم، أو عندما يتناولون طعامهم. وكانت أحاديثهم تدور عن المعتقلين، ووصف تصرفاتهم وأعمالهم، والتندر بالطرق التي يتبعونها للإمعان في احتقارهم وإلحاق الأذى بهم!.

وفي صباح اليوم الثالث الذي مر علينا ونحن في سجن الأحداث، وفد علينا ضيف ثالث ليشاركنا جحيم عيشنا في غرفتنا الحقيرة، وهو السيد كاظم الحيدري مدير إذاعة بغداد السابق ومذيع الأحاديث المعروفة باسم «أخي العربي حيث ما تكون!».

وبعد تبادل التهاني بالسلامة، راح كاظم الحيدري يحدثنا عن أخبار المعتقلين الآخرين، الذين أخذوا يتمتعون بشيء من الحرية في السير والتنقل في باحة سجن الأحداث الكبيرة وتبادل الزيارات وممارسة الألعاب الرياضية، والاغتسال في الحمام الكبير الذي لا تنقطع مياهه العذبة الباردة!.

كان السيد كاظم الحيدري محدودب الظهر وأنفه مشقوق، ورأسه ممزق في نواح عديدة. وبالرغم من مرور عشرة أيام على اعتقالنا فإن الأطباء لم يحضروا لزيارتنا.

حدثنا كاظم الحيدري عن مصيبته قال:

ـ اعتقلني ضابط برتبة ملازم أول وأنا في دار الإذاعة العراقية، حيث مارست عملي كمدير للإذاعة طيلة اليوم الأول من الثورة أي

في ١٤ تموز ١٩٥٨. وبعد أن ركبت سيارة الجيب إلى جانب الضابط أخذت السيارة تخترق صفوف المتظاهرين. وكان الضابط كلما شاهد جمعاً متحمساً من رجال الشارع، يصيح بهم صارخاً: هذا كاظم الحيدري!»، ويشير إليَّ. وكان الناس ينهالون عليَّ ضرباً بالأيدي وبالحجارة. وكانت الطامَّة الكبرى عندما دخلنا بوابة وزارة الدفاع، حيث تجمع رهط كبير من الجنود لمنع دخول المتظاهرين إلى فناء الوزارة، ولما توسطنا هؤلاء الجنود صاح بهم الضابط، حارسي «الأمين»: هذا كاظم الحيدري.

«ومنذ تلك اللحظة غبت عن الوجود، ولم أستفق من غيبوبتي تلك إلا عندما وجدت نفسي جالساً على خوان في غرفة عقيد، يبدو أنه كان قائداً لحرس وزارة الدفاع.

«وكان العقيد ينظر إليَّ بحنو وعطف. إن وجهه لم يكن غريباً عليَّ، ولكني وأنا في تلك الحالة التعسة من الألم الذي شمل كل أعضاء جسمي لم أكن قادراً على أن أتذكر أي شيء، حتى أنني نسيت نفسي ووجودي، فلقد كانت الدماء تسيل من الجروح العديدة في رأسي ووجهي وظهري!.

«لقد سلبني الجنود البواسل ساعتي وخاتمي وقلمي الباركر والدراهم التي كانت في جيبي.

«وقد أخبرني العقيد آمر الحرس، بعد أن استعدت رشدي، بأنه كان منقذي من أيدي الجنود الثائرين، الذين جاؤوا بالحبال لسحلي بعدما أشبعوني ضرباً بأيديهم وبأخمص بنادقهم ومسدساتهم.

«ولحسن حظي أن العقيد كان على مقربة من مكان الحادث، فأمرهم بالكف عن ضربي وحملني إلى غرفته. وقد علمت منه أنه كان

زميلاً لي في المدرسة الابتدائية، وهو اليوم آمر الانضباط العسكري العقيد عبد الكريم الجدة».

لم يكن في حديث السيد كاظم الحيدري شيء من المتعة، بل لقد زاد في آلامنا وأشجاننا، فحاولت تغيير مجرى الحديث إلى ناحية أكثر انشراحاً، فقلت له: ولماذا عزلونا نحن الثلاثة في هذه الغرفة الحقيرة القذرة عن بقية المعتقلين، الذين يسرحون ويمرحون في فناء ذلك السجن الكبير؟.

قال: لأننا نحن الثلاثة وأنت في الطليعة محدِّثون بارعون، نرفه بقصصنا وفكاهاتنا عن هموم المعتقلين وندخل السرور إلى نفوسهم، أو بعبارة أصح كما قال لنا الرئيس المجهول «إننا نسلي المعتقلين ونلهيهم عن الشعور بالمذلة والهوان»، الأمر الذي لا يريده الرئيس المجهول.

قلت وأنا أقهقه ضاحكاً من هذا المنطق الأعوج السقيم: إذن هذا هو سبب عزلنا هنا؟

قال الحيدري وهو يتكلف الابتسامة بمرارة وألم: أجل هذا هو السبب! قلت: ومن هو هذا الرئيس المجهول؟

قال: ألا تدري؟

قلت: لا.

قال وهو يهمس في أذني متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال: إنه الرئيس عبد الستار سبع، وهو الضابط الذي قتل الملك فيصل وعبد الإلٰه وبقية أعضاء العائلة الهاشمية المالكة بيده وبمدفعه الرشاش... وهو اليوم نائب رئيس معتقلنا أو سجننا هذا. وبالرغم من أن الرئيس أنور الحديثي هو رئيس السجن، فإن الرئيس عبد الستار سبع هو الكل في الكل، فهو يستطيع إطلاق سراح من يشاء، واعتقال أي شخص يشاء.



السيد كاظم الحيدري مدير إذاعة بغداد والمعلّق فيها سابقاً

قلت: إذن فأنا له، ولكل كرب عظيم.

كان على كل من يدخل سجن الأحداث أو يخرج منه، من ضباط أو جنود أو معتقلين، أن يمر من أمام باب غرفتنا المكشوفة...

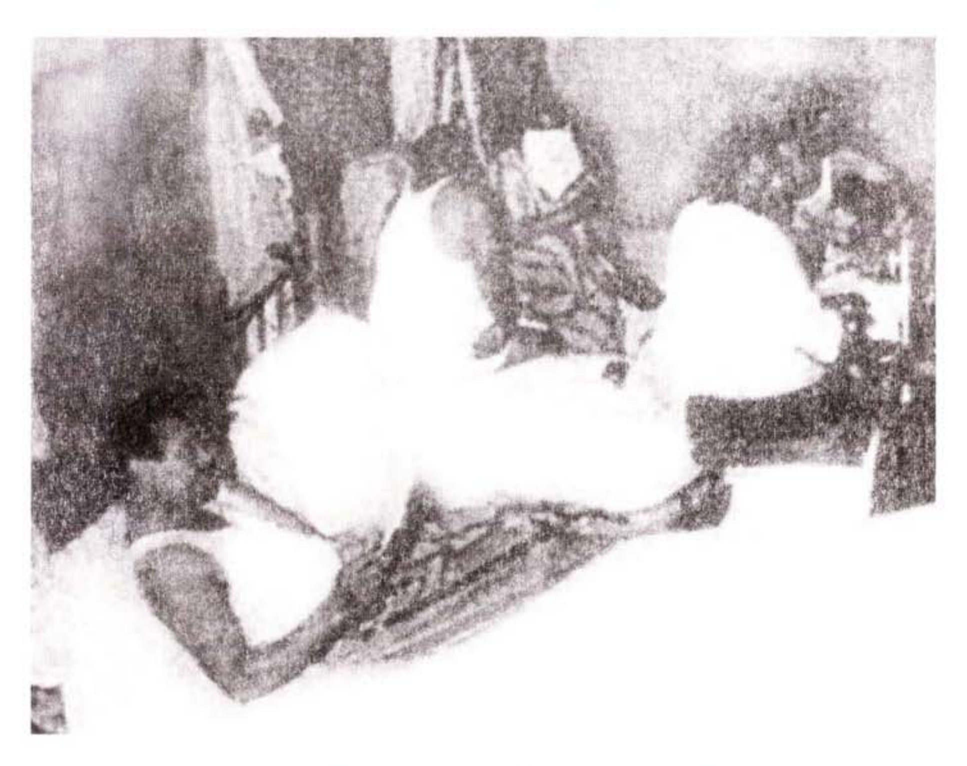
وكان الرئيس «المجهول» عبد الستار السبع، كلما مر بنا يشيح بوجهه عنا، ويتظاهر بعدم رؤيتنا. ولكنني قررت أن أعقد معه صفقة في سوق الصداقة، مهما كلف الأمر.

سألني الحيدري: كيف تتمكن من عقد هذه الصفقة ونحن في هذا الوضع المشين؟

قلت: لا أدري، إن الصدفة وحدها كفيلة بإتمام الأمر، فلننتظر.

وفي صباح اليوم التالي، أي اليوم السابع الذي مر علينا ونحن في سجن الأحداث ببغداد، فتح باب السجن الكبير المجاور لباب غرفتنا، ودخل الرئيس عبد الستار السبع وهو يقود عدداً كبيراً من مراسلي الصحف العربية والمصورين، وكنت أعرفهم جميعاً. ولم نكن قد ارتدينا ملابسنا بعد، فأخذوا لنا صوراً من وراء قضبان باب غرفتنا الحديدية. ثم فتح باب الغرفة، وراح الرئيس سبع يقدمنا إلى الصحافيين بأسمائنا المجردة.

وهجم عليَّ الزميل محمد رفعت مندوب دار «الهلال» وأشبعني تقبيلاً، فقال له الرئيس سبع: هل تعرف يونس؟.



السيد خليل إبراهيم المدير العام السابق لمجلس وزراء الاتحاد العربي مع بعض رفاق السجن

فأجاب قائلاً: إنه أستاذنا الكبير.

فضحك الرئيس سبع لأول مرة، وضحكنا جميعاً. وتقدم منا الزميل إبراهيم علي محرر جريدة «الزمان» البغدادية وصافحني قائلاً: حي العرب!.

فقلت: وحي الرئيس عبد الستار سبع.

فأجاب الرئيس سبع: بل حي الزعيم عبد الكريم.

فهتفت بأعلى صوتي: حي الزعيم الأوحد، عبد الكريم قاسم.

لقد أعجب الرئيس عبد الستار سبع بكلمة «الأوحد».

فقال لي: سأنقل هذه الكلمة إلى الزعيم، فكلمة «الأوحد» ابتكار بديع يا يونس!.

ولقيت الكلمة قبولاً حسناً عند الزعيم عبد الكريم قاسم، وعند أرباب الصحف وفي الإذاعة وشاع استعمالها في كل مكان حتى يومنا هذا، وصارت صفة ملازمة لاسم الزعيم عبد الكريم قاسم.

وبالرغم من أنه صار رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة وأمير لواء، فلقد احتفظ بلقبه القديم «الزعيم الأوحد» باعتباره أكثر شعبية، ويتجاوب سياسياً مع الحياة اليومية ومع الميول الفردية والجماعية على حد سواء.

وبهذه الوسيلة استطعت أن أدخل إلى قلب الرئيس عبد الستار سبع بدون كبير عناء. وبعد يومين من هذا الحدث الذي كان له الأثر البعيد في تقرير مصيري، جاءنا رئيس العرفاء «لفتة» وهو يصيح جذلاً مسروراً: يا يونس، لقد عفونا عنك!.

ثم فتح الباب، باب غرفتنا، على مصراعيه وقال: احملوا فراشكم وأمتعتكم واتبعوني، لقد أمر الرئيس عبد الستار سبع بإعفائكم من

السجن في هذه الغرفة، وستبقون مع المجموعة.

ودخلنا على المجموعة، دخول الفاتحين، وأنا أهلل، وأهتف بحياة «الزعيم الأوحد». وكيف لا أهتف وقد أنعم علينا بهذه الحرية... بإخراجنا من ذلك القبر الذي دفنونا به ونحن أحياء؟.

وقد وضعني رئيس العرفاء لفتة في «القاووش» رقم (٢). وكان يقيم فيه السادة: عبد الوهاب مرجان، أحمد مختار بابان، فاضل الجمالي،



صورة تجمع الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد فاضل عباس المهداوي رئيس محكمة الشعب واللواء أحمد صالح العبدي الحاكم العسكري العام

توفيق السويدي، خليل كنه، خليل إبراهيم، بهجت العطية، عبد الجبار فهمي، سعيد قزاز، عصام مريود، أحمد نامق «حفيد السلطان عبد المجيد الخليفة العثماني» والمطلوب من الجمهورية العربية المتحدة، وسعيد لطفي، المذيع المصري اللاجىء إلى العراق في العهد الملكي، ومحمود هندي الضابط السوري اللاجىء إلى العراق، وجمال المفتي نائب الموصل السابق وشقيقه حازم المفتي المحامي، والشيخ الرومي من مشايخ الطرق في الموصل وهو شيخ طاعن بالسن اعتقلوه لأنه أقام الفاتحة في داره لمدة ثلاثة أيام على روح الملك فيصل الثاني.

وأقيمت على شرفنا تلك الليلة حفلة تكريم ألقيت فيها الخطب، ولما لم يكن الشعراء المعتقلون معنا على علم سابق بالعفو عنا وإلحاقنا بالمجموعة، فلم يلق بطبيعة الحال الشعراء قصيدة ما، بل اكتفوا بالمشاركة بسماع الخطب وتناول الطعام.



لم نتعود بسهولة على هذه الحرية في سجن الأحداث الفسيح الأرجاء، بعد أن بقينا طوال تلك المدة في معزل عن المجموعة، قابعين وراء قضبان تلك الحجرة الضيقة الحقيرة، وزاد في سروري وجود فراشي إلى جانب فراش السيد عصام مريود، الذي كنت أميل إلى أحاديثه الشيقة وإلى الأموال الطائلة التي كان يصرف منها بسخاء!.

حدثني عصام بأن السلطات العسكرية العراقية تنوي تسليم الضباط السوريين اللاجئين للعراق إلى الجمهورية العربية المتحدة، وهذا يعني تسليمه هو، ومحمود الهندي (وكان الأخير ضابطاً في الجيش العربي الذي ألفته قيادة الجيش الألماني سنة ١٩٤١، وعرف باسم جيش بلاد العرب الحرة، وكان قائده المجاهد فوزي القاووقجي) وغيرهما من أمثال المذيع سعيد لطفي والأمير التركي أحمد نامق.

قال السيد عصام مريود: إن لديَّ مالاً كثيراً في مصرف الرافدين. وأخشى أن يصدر القرار بتجميد أموال المعتقلين أو حجزها، كما أنني لا أستطيع نقل هذا المبلغ إلى دمشق.

وفيما كنا نتجاذب أطراف الحديث، سمعنا وقع أقدام عسكرية تقترب منا، ووقف على باب غرفتنا ثلاثة ضباط، أحدهم برتبة مقدم والآخران برتبة رئيس أول ورئيس.. وكان المقدم رجلاً قصير القامة، سمين الجسم، يزيد حجمه على حجم طبل فرقة موسيقية. وقد استغربنا عدم وجود رئيس السجن أو نائبه مع هؤلاء الضباط.

ونادى المقدم بصوت مسموع «السيد عصام مريود»، فهب عصام واقفاً وهو يتمتم قائلاً: لقد جاؤوا لأخذي!.

فأخذه الضباط معهم إلى حمام السجن، وبعد أن اختلوا به زهاء ربع ساعة عاد إلينا عصام، وهو مصفر الوجه بادي الاضطراب. وقبل أن يتفوه بكلمة، عاد الضباط الثلاثة وأشاروا إلى عصام وهم على عتبة باب الغرفة قائلين: يا عصام، لقد نسينا أن نأخذ مفاتيح مكتبك وخزانتك الحديدية.

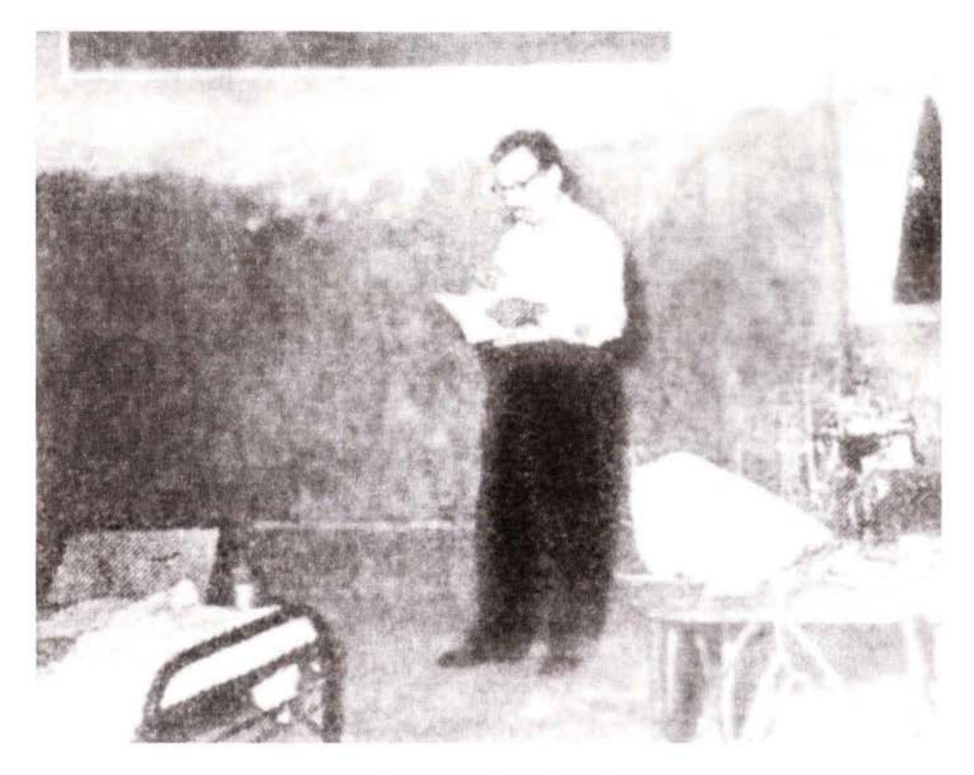
ومشى عصام متقدماً نحو الباب ومد يده بالمفاتيح إلى المقدم، فأخذها وانصرف الضباط.

وروى لي عصام ما جرى، فقال: لقد أخذ المقدم دفتر «شيكاتي» بعد أن وقعت بطلب منه على شك واحد بمجموع ما لدي من المال في المصرف، وكتبت الشك باسم «حامله».

قلت: هل لدى الضباط أمر رسمي بأخذ دراهمك!؟!

قال: كلا.

قلت: إذن كيف سلمته الشك موقعاً باسمك؟



الفريق رفيق عارف، رئيس أركان الجيش العراقي السابق
وهو يطالع في غرفة السجن

قال: ما العمل، وهم ضباط وأنا معتقل وفي انتظار التسفير؟ لقد أخافوني وهددوني.

قلت: وما هو قدر المبلغ؟

قال: ١٤[١] ألف دينار، وفي خزانة المكتب يوجد مبلغ قدره ٣ آلاف دينار وكمية من الليرات الذهبية تقدر قيمتها بألف دينار.

قلت: ما أغباك يا عصام، لقد ضحكوا عليك وسلبوك مالك بمثل هذه السهولة!.

---

(١) كان الدينار العراقي الواحد يساوي ٣,٣ دولار.

قال: إن حياتي أغلى من ذلك المال.

لقد تألمت جداً من هذه البادرة الخطيرة التي بدت من أولئك الضباط. ثم سألت مساعد رئيس السجن الرئيس سامي عن المهمة التي جاؤوا من أجلها إلى السجن، فقال لي إنهم جاؤوا لزيارة «صديقهم» عصام مريود.

ولما سألت عصاماً عنهم، قال إنهم ليسوا من أصدقائه ولكنهم يعرفونه عندما كان يقوم بأعمال تعهدات للجيش.

فأردت أن أقول إنه كان ضحية نصب واحتيال، ولكن دخول الرئيس عبد الستار سبع علينا فجأة حال دون ذلك.

كان الرئيس سبع يحمل ورقة بيده، وبعد صمت قليل قرأ أسماء من فيها وهم: عصام مريود، أحمد نامق، سعيد لطفي، محمود هندي وقال لهم: البسوا كاملاً واستعدوا للسفر حالاً...

وهكذا تم تسفيرهم إلى دمشق!.



ـ ٦ ـ

إمام ومؤذن وطباخ

اتضح لنا ونحن ندور حول بعضنا البعض في هذا السجن، سجن الأحداث ببغداد، أننا أصبحنا كالزنابير الموضوعة في فنجان مقفل الفوهة، فحياتنا تسير على وتيرة واحدة، والوجوه التي نتبادل النظر إليها في كل ساعة وفي كل دقيقة من دقائق كل يوم هي واحدة، اللهم إلا الوجوه الجديدة التي تطلّ علينا بين ساعة وأخرى بمجيء معتقلين جدد ينقلون إلينا أخبار البلد المحلّية، والأخبار العالمية والتطورات الحاصلة بعد يوم ١٤ تموز. . .

وكان إدخال الصحف علينا ممنوعاً، وكذلك حرم علينا دخول الكتب وكان يفصل بين سجن الأحداث والسجن العام جدار، يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار. وفي ذلك السجن الذي يغص بالمجرمين والقتلة واللصوص والأشقياء، كان السجناء يتمتعون بسماع مختلف الإذاعات المحلية والعالمية، حيث أجازت لهم السلطات اقتناء أجهزة الراديو واستخدامها بالكهرباء أو البطاريات. أما نحن المعتقلين السياسيين، فلقد حرموا علينا الحصول على أجهزة الراديو وسماع الإذاعات!.

واقترحت على رفاق السجن أن نصلي الأوقات الخمسة. .

وكان لديَّ مصحف صغير أحمله معي أينما ذهبت وحللت، فجعلت أقرأ القرآن الكريم ترتيلاً، وجعلت أقوم بأداء الأذان كلما حان



اللواء الركن غازي الداغستاني، يدبج رسالة في غرفته بالسجن

وقت الصلاة بصوت أعجب الجميع. وكنت حين أنسى حلول وقت الصلاة، يتقدم إليَّ عدد من المعتقلين من غير المصلين، لينبهني إلى أن وقت الصلاة قد حان، وأن عليَّ أن أؤذن!.

ولم يقبل على الصلاة إلا عدد يسير من المعتقلين، وفي طليعتهم الدكتور فاضل الجمالي، وعبد الوهاب مرجان، وعبد الجبار فهمي، وأحمد مختار بابان، وفخري الفخري أمين عاصمة بغداد.

صليت بادىء ذي بدء إماماً بهذا العدد القليل، ولكن صلاة الجماعة لم تجد رواجاً عند المعتقلين، لأن كل واحد منهم يريد أن يكون مستقلًّا مع ربه ليخاطبه على انفراد، فيفضي له بمصائبه وأشجانه، أو لأنهم لا يعتبرونني صالحاً للمهنة.

وهكذا فشلت في السجن كإمام، ولكنني نجحت نجاحاً باهراً كمؤذن بارع.

وهناك ناحية أخرى نجحت فيها وأثارت إعجاب المعتقلين، وزوَّدتني بدراهم يومية لا بأس بها لأستعين بواسطتها على شراء الدخان واللوازم اليومية الأخرى، فلقد صرت أطبخ لبعض الرفاق طعاماً يقترحون طبخه، الأمر الذي مكنني من أن أطبخ لنفسي.

ولم تنجح سياسة الصلاة في السجن... فلقد تقلص عدد المصلين، فبعد أن كانوا يعدون بالعشرات بادىء ذي بدء، أصبحوا بعد ثلاثة أشهر من الاعتقال ثلاثة أشخاص فقط وهم الدكتور فاضل الجمالي والسيدان فخري الفخري وعبد الجليل الراوي وزير العراق المفوَّض في دمشق، وكان الفخري والراوي يقرآن القرآن الكريم بصوت عال.

ولكن صوت السيد فخري الفخري كان صوتاً مزعجاً، فهو فضلاً عن كونه صوتاً جافاً كان رتيباً وعلى وتيرة واحدة. في حين أن صوت السيد عبد الجليل الراوي كان مقبولاً.

وكنت بحكم عملي في السجن «موزِّعاً» للطعام، وهي وظيفة عينني بها الرئيس عبد الستار سبع، وكلما قصرت في شحن طبق السيد فخري

الفخري بقطع اللحم والخضر والرز يهددني بقراءة القرآن بصوته المعروف، فأرضخ صاغراً لطلبه تخلُّصاً من مصيبة سماع صوته.

وذات يوم ونحن في سجن الأحداث، نلعب لعبة «الطومبولا» التي وضعها لنا السيد كاظم الحيدري في الغرفة رقم (١)، وكان قد نضب معين الدراهم في جيبي... وصرت أغسل أواني الطعام للزميل عادل عوني، ليتكرم عليَّ بشيء من سكائر «لوكي سترايك»، جاء رئيس العرفاء «لفتة»، ووقف أمام الكوَّة الصغيرة التي تتوسط باب سجن الأحداث وهي تفتح من الخارج لمحادثة المعتقلين وتسليمهم الأشياء الصغيرة دونما حاجة لفتح الباب، وصاح ينادي بصوته الجهوري:

ـ أبو لؤي!.

فقمت من مكاني قاصداً الباب، لأنني أكنى بهذا اللقب، فأنا أبو لؤي، لأن لؤياً هذا هو ابني في العراق.

وما إن وقفت أمامه وجهاً لوجه حتى حياني وهو يبتسم، ومد إلي بورقة ثم قال: وقع عليها بإمضائك.

فوقعت! وأنا مذهول من شدة الدهشة، إذ لم أكن أتوقع أن يطلب مني رئيس العرفاء توقيعاً.

لم أشأ أن أسأله علام هذا التوقيع ولماذا، ولم يشأ هو على ما يظهر أن يفسر أو يعلق على الموضوع ولو بكلمة واحدة. وبعد أن ناولته الورقة موقعة بدون أن أكلف نفسي عناء قراءة ما كان مخطوطاً عليها، ناولني رزمة من الدنانير: خمسون ديناراً نقداً وعدًّا.

لم أتمالك نفسي وأنا أضع هذا المبلغ المحترم من المال في جيبي من أن أفكر في أن أحد الأصدقاء قد بعث لي به ليساعدني على قضاء حاجتي، لئلا أبقى أبد الدهر في السجن غسالاً لأواني طعام الزميل عادل عوني.



السيد توفيق السويدي
وزير خارجية الاتحاد العربي سابقاً كان معنا في سجن بغداد

وطلبت فوراً إلى العريف المولج بشراء ما نحتاج إليه من طعام أن يأتيني بمحتويات قائمة كتبتها له، ونفحته بعشرة دنانير، مشفوعة بدينار وضعته في جيب قميصه الخاكي، فقال: حاضر يا أستاذ!.

وإن هي إلا دقائق معدودات، حتى عاد وهو محمل مع جنديين من أتباعه بالمؤونة من المعلبات للطعام والدخان تكفي لستة أشهر. وكنا في الشهر الرابع من حياة السجن.

وأولمت وليمة «عرمرمية» دعيت إليها نخبة ممتازة من كبار المعتقلين من رؤساء وزارات ووزراء وقادة جيش وشرطة وأمن عام وأرباب صحف ومتصرفين، ومديرين عامين... وكانت الوليمة من أروع الولائم التي أقيمت في السجن، اشترك فيها رئيس السجن أنور الحديثي ومساعده عبد الستار سبع، ورئيس العرفاء لفته.

وبالغت بالحفاوة بالضيوف، وكأنني أمير من أمراء بني تميم، أوزع الطعام والابتسامات على هذا وذاك بسخاء ما بعده سخاء.

وكان السيد توفيق السويدي من عداد ضيوفي المرموقين، فأكل وشرب وهو يردد على الضيوف عبارات الشكر والامتنان، حتى أنه اعتبرني حاتم طيّ. . . بالنسبة إلى ما حوته مائدتي من الأصناف العديدة والشهية معاً من الطعام الذي هيأته بكل إتقان وترتيب. . .

وسألني السويدي: يا يونس، من أين لك هذا؟

فأجبته كما أجابت مريم زكريا: هذا من عند ربي.

وانفض عقدنا ونحن على أتم ما يكون من السرور والانسجام، وبعد فترة القيلولة اجتمعنا لتناول الشاي عند السيد خليل كنة، وكان الجمع حافلاً، فأطل علينا السيد توفيق السويدي وهو يلقي عليَّ نظرة فاحصة، لقد طلبت أمس مبلغاً من المال من زوجتي، ألم يأت رئيس العرفاء ويسأل عني؟

وما إن تفوه السويدي بعبارته تلك حتى أخذ الرفاق يتغامزون بأعينهم عليَّ، وانفرجت أسارير وجوههم عن ابتسامات عريضة، ولكنني أدرت رأسي والتهيت بشرب الشاي، فهجم عليَّ السويدي وقال: فلوسي. . . أين هي فلوسي يا يونس؟

قلت له: ماذا تعني؟ هل أخذت منك شيئاً؟ إذا كانت لك فلوس فراجع من أجلها رئيس السجن؟

وفعلاً أعد السويدي كتاباً موجهاً إلى رئيس السجن، بلغته المحكمة، فالسويدي محام كبير، ويعتبر من الرعيل الأول في القانون، وهو أول عراقي درس الحقوق في جامعة باريس منذ سنة ١٩١٢. ولكنه نسي أن الرئيس عبد الستار سبع لا يعرف القانون ولا يعترف به، وقد

برهن بقتله الملك فيصل وبقية أفراد العائلة الهاشمية المالكة على أنه لا يعير القانون ولا الدستور أي اهتمام.

ومع ذلك ضمَّن السيد توفيق السويدي كتابه إلى رئيس السجن بعض الملاحظات القانونية عن حقوق السجناء.

وجاء الرئيس أنور ومعه معاونه الرئيس سبع، للتحقيق في الأمر، فقال لي الرئيس سبع: هل أخذت مالاً من السويدي؟

قلت: لا!

فقال للسويدي: هل أخذ منك يونس مالاً؟

قال: لا، ولكن العريف لفته أعطاه مائة دينار.

فقلت مصححاً: ٥٠ ديناراً فقط.

وقال الرئيس سبع: هذا موضوع لا يخصك!.

وانتهى التحقيق، وانتهت معه القضية. ولعل القارىء، فهم أن السيدة المحترمة قرينة الرئيس السويدي هي التي أرسلت إليه مئة دينار، فأعطاني منها العريف خمسين، واحتفظ لنفسه بالباقي. وأقسم أنني لم أكن أعرف القصة، ولم أعلم بالأمر إلا بعد أن تصرفت بالمبلغ.



ـ ٧ ـ

أموال المعتقلين والهاربين

كنا ونحن في السجن نجد في كل يوم طارئاً مفاجئاً من الحوادث والأحداث. وكانت الأخبار والشائعات تصلنا قبل أن تنتشر في أسواق بغداد ومحافلها السياسية. فلقد كان جنود الحرس يحرصون كل الحرص على تزويدنا بهذه الأخبار والشائعات، لعلمهم بأننا كنا نحرص بدورنا على ملء جيوبهم بالدراهم والدنانير.

لقد صدر مرسوم جمهوري بحجز أموال المعتقلين والهاربين إلى خارج العراق من رجال العهد الملكي، المنقولة وغير المنقولة... ومنعت المصارف من أن تصرف لكل واحد من المعتقلين، أكثر من ٣٠٠ دينار شهرياً، وقد حمدت الله وشكرته على أن اسمي لم يرد في قائمة المحجوز على أموالهم، لكوني لا أملك شيئاً منقولاً أو غير منقول في العراق، بل لأن مجرد ذكر اسمي بين المعتقلين كان سيثير اهتمام الرأي العام، فلقد اعتقد الناس وخاصة في بغداد بأنني من كبار الأغنياء، ولكن اعتقالي هنا قد بدد هذه الخرافة أو الأسطورة... إذ لم تجد لجنة التحقيق في رصيدي في البنوك سوى مبلغ قدره ٣٠٠ دينار قبل سنة من يوم ١٤ تموز، وهذا المبلغ كان قد منحني إياه السيد عبد الوهاب مرجان عندما كان رئيساً للوزارة سنة ١٩٥٧، وقد سحبته بعد يومين من إيداعه في مصرف الرافدين.

إن حجز أموال المعتقلين قد كشف عن حقيقة مدهشة، وهي أن هؤلاء الرؤساء والوزراء والساسة لم يكونوا أثرياء، بل ثبت أن الثروات في الأموال المنقولة المسجلة بأسماء أصحابها في المصارف والبنوك ثروات عادية، وأن أكثر الرؤساء والوزراء فقراء.



مالك سيف الشيوعي السابق، يلبس سرواله في السجن

وهذا يعني أن الدعايات التي أمعنت بتضخيم ثروات رجال الحكم السابق بعناد وإصرار زائدين كانت تجعل الألف دينار مائة ألف أو يزيد، وتجعل من المائة ألف مليون دينار.

ولنضرب على هذا مثلاً: وجد أن المرحوم سعيد قزاز لا يملك سوى ٣ آلاف دينار، وأن بهجت العطية مديون، وأن رصيد أحمد مختار بابان في بنك الرافدين كان ٨ آلاف دينار، وكما أن السيد خليل كنة الذي قالت عنه الإشاعات بأنه حاول تهريب ١٨ مليون دينار بسيارته يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ لم يكن رصيده ليتجاوز ٤ آلاف دينار فقط.



وفي صباح اليوم الثالث من سماحهم لنا بمطالعة الصحف وشرائها، فقد تقرر أن يسمح لكل «قاووش» أن يشتري ثلاث صحف مختلفة، فيكون المجموع (٩) صحف...

وقد عينني الرئيس عبد الستار سبع القائم بأعمال «صحف السجن» فعقدت اتفاقاً «سرياً» مع العريف صبري الموصلي، وهو المولج بشراء الصحف على أن يشتري لنا كل الصحف الصادرة ببغداد، على أن أدفع له ثمن كل صحيفة، بعد خصم الصحف التسع الرسمية، (٦٠) فلساً.

ولما لم يكن من المتيسر أن نعطي كل معتقل جريدة، فلقد قررنا بإجماع الآراء أن أتولى قراءة الصحف بصوت عال، فيجلس المعتقلون في ساحة السجن، وأقوم بإذاعة محتويات تلك الصحف. وكان يساعدني في قراءة برقيات الصحف الخارجية السيد مالك سيف الشيوعي السابق.

وفي صباح اليوم الثالث من سماحهم لنا بمطالعة الصحف، ظهرت علينا جريدة جديدة تحمل اسم «الجمهورية» لصاحبها عبد السلام عارف، ورئيس تحريرها عبد الوهاب الغريري، وقد طبعت هذه الجريدة في مطبعة الشعب.

لم أتمالك نفسي بعد أن قرأت اسم مطبعة الشعب التي يملكها الصديق يحيى قاسم إلا أن أناديه، وأطلعته على جريدة «الجمهورية»، فراح يولول ويصيح.

قلت: ماذا دهاك يا يحيى؟.

فأجاب وهو يشير بيده إلى جريدة «الجمهورية»: هذه جريدتي، حروفي، مطبعتي، ورقي، لقد صادروا جريدتي ومطبعتي وورقي، وأصدروا بها هذه الجريدة. يا عالم! يا ناس! أين العدل؟ أين الإنصاف؟.

قلت له: هدىء من روعك يا صاحبي، ألا يكفيك أنك تتمتع بالصحة والعافية، فلتكن المطبعة فداء لك.

قال: ولكن بأي حق يصادرون جريدتي، في حين يسمحون لبقية



اللواء السابق عبيد الله المضايفي إلى اليمين،
والزعيم السابق افرام هندو إلى اليسار

الصحف الأخرى بالصدور ويعتقلونني؟

قلت: دعهم وشأنهم يا رجل، فمن راقب الناس مات همًّا.

قال: سأقيم الدعوى عليهم، سأقاضيهم.

قلت: اتركنا من هذا كله الآن، فالمقادير وحدها كفيلة بترتيب الأمور، فنحن هنا في هذا السجن المنحوس أسرى ورهائن، لا حول لنا ولا طول، فدع «العنتريات» إلى أن يحين حينها، وحينئذ يكون لكل مقام مقال، أبو بالعكس.

وبعد ثلاثة أيام استدعيت لأول مرة للوقوف أمام لجنة التحقيق.

وما إن وقفت أمام لجنة التحقيق بوزارة الدفاع، حتى رحت أجول بنظري بين عقداء ثلاثة، بحثاً عن رئيس اللجنة. وكأن هؤلاء العقداء قد قرأوا ما يجول في خاطري، فحاولوا عدم تمكيني من معرفة الرئيس. . . ومن أجل ذلك قال لي ممثل الشرطة في اللجنة، ويسمى الرئيس الأول صبري: تفضل يا أستاذ!.



وأشار إلى كرسي يقع أمام العقيد الذي يتوسط العقداء الثلاثة، فجلست وأنا أضحك، فضحك الجميع دفعة واحدة، ولكن الرئيس الأول صبري قال متسائلاً: لماذا تضحك يا أستاذ؟

قلت وأنا أغتنم فرصة هذا الجو المرح: أضحك على كلمة «أستاذ».

قال: ولماذا؟

قلت: لأنني أستغرب إطلاق هذا اللقب عليَّ.

صعق الجميع من كلامي هذا، واشرأبت أعناقهم نحوي، فقالوا

بصوت واحد: ولماذا؟.

قلت: لأننا لم نسمع منذ أن اعتقلنا إلا كلمات الخيانة والتآمر وأذناب الاستعمار تكال لنا جزافاً، ومن أجل ذلك فأنا لم أعد متعوداً على سماع الكلمات الإنسانية التي تشرِّف قائلها وسامعها.

وتطلع الأعضاء إليَّ وكأن تياراً كهربائياً قد لامس مفاصلهم، وساد السكون برهة وجيزة. ثم تكلم العقيد رئيس اللجنة فقال: يا أستاذ إن المتهم يبقى بريئاً، ولكن رهن التحقيق، إلى أن تثبت براءته أو يدان.

قلت: هذا ما نعرفه ويعرفه المنصفون، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن في المعتقل وفي السجن ضاعت المقاييس، إذ لم يعد هناك من يقرأ أو يسمع!.



الزعيم السابق سيد أمين بكر يفك الحراس قيده عند دخوله سجننا...

قال: إن ما تقوله عجيب ومعيب... لماذا لا تكتب هذه القصص للزعيم؟.

قلت: وإذا كتبتها، فمن يوصلها إليه؟ يا سيدي العقيد إن حاميها حراميها اليوم.

قال: ومن هو رئيس معتقلكم؟

قلت: الرئيس أنور الحديثي يعاونه الرئيس عبد الستار سبع.

وما إن سمع العقيد باسم المعاون، حتى سكت ولم يزد على ذلك بكلمة واحدة.

وأشار رئيس اللجنة إلى ضابط الخفر قائلاً: أعيدوا الأستاذ إلى محله وأتونا بالشاهد يونس بحري غداً.



ـ ٨ ـ
ابتداء التحقيق معنا

أمر الحاكم العسكري أمير اللواء أحمد صالح العبدي بتأليف لجنة للتحقيق مع المعتقلين المدنيين والعسكريين وإعداد ملفّاتهم لعرضها على المحكمة العسكرية العليا الخاصة، التي أسموها فيما بعد «محكمة الشعب. . .».

وقد كانت لجنة التحقيق مؤلفة من ضباط وبعض المدنيين برئاسة العقيد محمود عبد الرزاق.

وكان العقيد رفعت الحاج سري رئيساً لاستخبارات الجيش، فاختار بنفسه الضباط المؤلفة منهم لجنة التحقيق. وقد كانت لجنة التحقيق حسنة التهذيب، وكانت تعاملنا بأدب ولطف.

ولأول مرة منذ اعتقلنا شعرنا بشيء يسمى «الاحترام» للقيم الإنسانية وللذاتية الفردية، بعدما أشبعونا ضرباً وشتماً وبصاقاً وإهانات بذيئة لم يعرف لها الشرف العربي مثيلاً منذ العهد الجاهلي حتى يومنا هذا.

وأشعرنا العقيد عبد الرزاق محمود بأننا نملك حق المناقشة معه ومع أي عضو من أعضاء لجنته، عسكريين كانوا أم مدنيين، خاصة بعد أن حاول أعضاء اللجنة المدنيين إساءة التصرف معنا، وإسماعنا كلمات

بذيئة، فمنعهم العقيد رئيس اللجنة من ارتكاب متن الشطط بإيقافهم عند حدِّهم. . .

كان أول من استدعي للوقوف أمام لجنة التحقيق الزميل عادل عوني صاحب جريدة «الحوادث» البغدادية. وبعد مضي ساعة من الزمن أعيد إلينا ووجهه طافح بالبشر، وظننت بأنه جاءنا بالبشرى لإطلاق سراحنا، ولكنه خيب آمالنا عندما قال يا جماعة: إن السفور قد عم بغداد. . . إذ لم أشاهد فتاة واحدة من هذا السجن إلى وزارة الدفاع إلا وهي سافرة، وقد زالت العباءة تماماً كما زال نجمنا نحن.

كانت المحكمة العسكرية العليا الخاصة التي تألفت في الشهر الثاني لانقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ قد بدأت بمحاكمة قادة الجيش العراقي السابقين. وكان أول من وقف أمام هذه المحكمة أمير اللواء الركن غازي الداغستاني، بتهمة المساهمة في «سوق الجيش العراقي للهجوم على سوريا واحتلالها بالقوة» وكان المتهم الثاني في هذه القضية رئيس أركان حرب الجيش الفريق محمد رفيق عارف.

وفي صباح ذات يوم من أيام شهر تشرين الأول ١٩٥٨ اقتادني أحد ضباط الانضباط العسكري بصحبة الدكتور فاضل الجمالي إلى وزارة الدفاع، ثم دخلت بنا سيارة الجيب العسكرية إلى دار البرلمان العراقي السابق من الباب الخلفي المتصل بوزارة الدفاع، وقد علمت من ضابط الخفر الذي تسلمنا، أننا سنمثل أمام المحكمة العسكرية كشهود ضد الفريق محمد رفيق عارف.

وكان موجوداً في غرفة الشهود أمير اللواء غازي الداغستاني والزعيم أحمد مرعي، فصار مجموعنا أربعة شهود إثبات، ضد رئيس أركان حرب الجيش العراقي السابق.

لم أكن أعرف أي شيء عن التهمة الموجهة إلى هذا القائد، ولم يتحدث إليَّ عنه أحد في لجنة التحقيق، إذن كيف يمكنني أن أشهد على شيء أجهله؟

وفيما كنت أفكر في هذه الورطة الجديدة التي وقعت فيها بسبب استقدامي إلى المحكمة، ناداني ضابط خفر المحكمة وقال لي: اتبعني.

وسرت بين صفين من الجنود، وقد سددوا فوهات بنادقهم الرشاشة إلى صدري، إلى أن وقف الضابط على باب غرفة فقرأت على لوحة نحاسية اسم «رئيس المحكمة». وبدون أن يطرق الباب فتحه وهو يقول: «الشاهد يونس بحري».

لم يكن في الغرفة أي إنسان، فوقفت أشاهد الصور المعلقة على



إحدى جلسات محكمة الشعب خلال محاكمة اللواء الركن غازي الداغستاني

الجدران تعلوها صورة كبيرة بحجم جسم الإنسان الطبيعي كتب تحتها بخط فارسي «الزعيم الأوحد» عبد الكريم قاسم، القائد العام للقوات المسلحة ورئيس الوزراء ووزير الدفاع.

وبعد مرور ثلاث دقائق، فتح باب سري من تحت صورة «الزعيم الأوحد»، ودخل ضابط قصير القامة يتقدم جسمه كرش ضخم، هو أبرز شيء في هذا الضابط الذي كان يحمل رتبة عقيد، ودخل وراءه خمسة أشخاص، ثلاثة من الضباط واثنان من المدنيين.

كان العقيد السمين الكرش يحمل أوراقاً وضعها على منضدة أنيقة، وبعد أن حدجني بنظرة فاحصة ابتسم وقال: اشلونك؟

قلت: الحمد لله بخير.

قال: ألا تعرفني؟

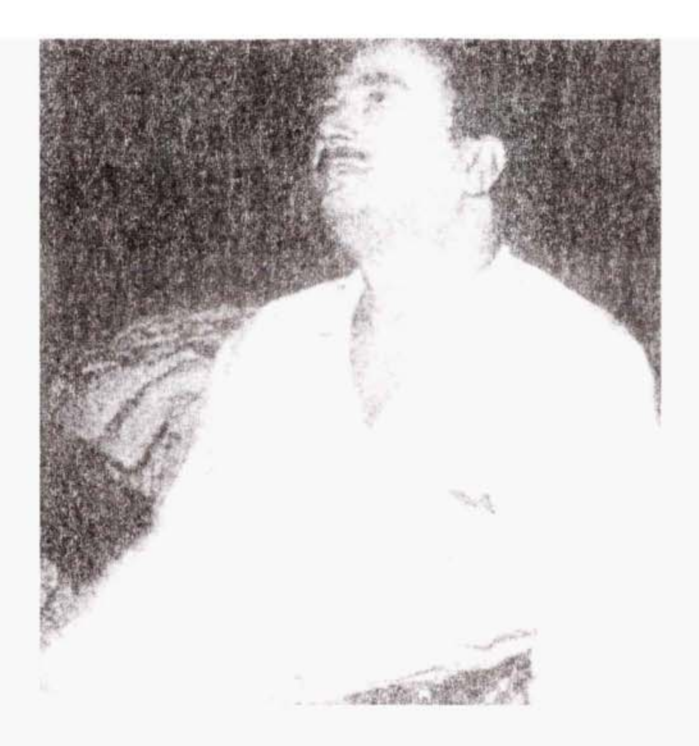
قلت: لم يحصل لي شرف التعرف بسيادتكم!.

قال: أنا المهداوي... العقيد فاضل عباس المهداوي رئيس المحكمة.

قلت: تشرفنا.

وراح يعرفني على من حوله قال: زملائي العقيد ماجد محمد أمين المدعي العام. الرئيس الأول فاضل عباس اللامي عضو المحكمة، والحاكم المدني كمال عمر نظمي عضو المحكمة..

ثم استمر المهداوي في حديث طويل معي، شرح لي فيه ما يجب عليَّ أن أقوله ضد الفريق رفيق عارف، وقد أفهمني صراحة بأنني إذا شهدت كما علمني، فإنه سيقوم باتخاذ التدابير اللازمة لإطلاق سراحي. أو بعبارة أكثر صراحة، كان عليَّ أن أكون شاهد زور، والمكافأة على هذه الشهادة المزوَّرة ضمان حريتي.



الأمير السابق محمود نامق من أحفاد الخليفة العثماني عبد المجيد ومن أقارب الملك فاروق كان معنا في السجن

صعقت من الدهشة، وعبثاً حاولت أن أقنعه بأن هذا لا يجوز شرعاً وعدلاً، فاستشاط العقيد ماجد محمد أمين غيظاً، وصاح بي قائلاً: ولك يا ملعون الوالدين، ما عليك إلا أن تقول ما قيل لك... وإذا لا تفعل فإن هذا دواؤك.

وأشار إلى مسدسه الضخم. فتطلعت إلى المهداوي تطلع المتوسل الذي يستجير لإنقاذه من ورطة لا دافع لها، خاصة بعد أن لمست من أقواله أنه يحب الدعابة ويستملح النكتة، فانتهر العقيد ماجد، وقال له: لا تشتم الأستاذ يونس، إنه صديقي قبل أن ألتحق بالخدمة العسكرية.

وأشار إليَّ بالجلوس أمامه وهو يقول:

ـ نعم أنا صديقك يا يونس. ألا تذكر المرحوم كامل مهدي باشا

«أبو الشوارب» عندما كان مديراً للتنظيفات بأمانة العاصمة؟

ثم قال: ألا تتذكر ذلك الشاب الذي جاء إلى مكتبك بجريدة «العقاب» ببغداد سنة ١٩٣٤ وهو يحمل إليك رسالة من الأستاذ مصطفى علي وزير العدل بوزارة الزعيم عبد الكريم قاسم اليوم، وكيف أنك توسطت لدى المرحوم كامل فوظفته عنده في أمانة العاصمة؟

قلت: نعم أتذكر ذلك جيداً... لقد كان ذلك الشاب، رقيقاً مهذباً... وكم من ليلة قضيناها معه نشرب عرق «هب هب...»، ونرقص ونغني عندي في مكتب جريدتي العقاب، الكائن وراء بناية أمانة العاصمة مباشرة.

نسي العقيد المهداوي نفسه واعترته نشوة من السرور والانشراح، وجعل يدندن نغماً كنت أتغنى به دائماً في هاتيك الأيام والليالي الملاح، وما إن رآني أشترك معه في ترديد النغم حتى قال وهو يتنهد: هل تذكرت؟

قلت: بلى وربي: عيوني... ألست عبوسي؟

قال: نعم...

وعندها قال لي العقيد ماجد أمين بغضب: اخرس، تأدب، أنت أمام رئيس المحكمة.

قال المهداوي وهو يخاطب من حوله: اخرجوا واتركوني مع الأستاذ يونس.

وهجم عليَّ وهو يشبعني تقبيلاً وعناقاً، ويعتذر لي عما بدر من ماجد أمين، وهو يقول: هؤلاء لا يعرفون من هو يونس بحري... إنني صديقك ويمكن الاعتماد عليَّ منذ الآن فصاعداً.



العقيد الركن ماجد محمد أمين المدعي العام العسكري بمحكمة الشعب

وفتح باب خزانة إلى جانبه، وكانت تعج بأصناف المشروبات وقال: ماذا يعجبك أن تشرب يا يونس، حتى تشد حيلك في المحكمة، تكلم كما يعجبك، وسنضحك على الجماعة معاً.

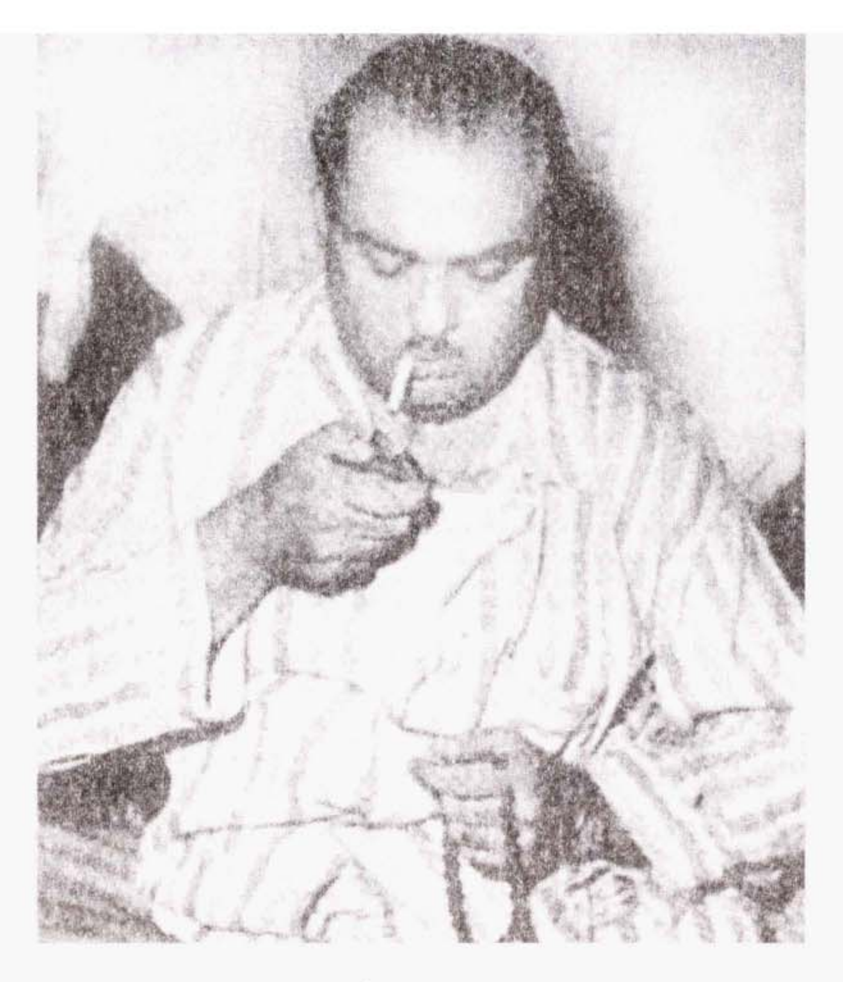
قلت: ويسكي من فضلك، فلقد حرمت منه منذ أن اعتقلت.

وفتح براداً كان عن يساره وقال: هيا اشرب... هذا الويسكي... وهذه الصودا.

وبعد أن تبادلنا الأنخاب، وشربنا أربع كؤوس من الويسكي «دوبل»، صرت أشعر وكأنني النجاشي إمبراطور الحبشة، فقلت له: أرجوك أنقذني من العقيد ماجد أمين.

قال: لا ينبغي أن تهتم به... جاوبه على هواك ولا تخف... فأنا معك.

ونادى على ضباط الخفر وقال لهم: أوصوا ضباط الانضباط



السيد برهان الدين باش أعيان آخر وزير للأنباء في الأتحاد العربي كان معنا في السجن

والجنود بلزوم احترام صديقي الأستاذ يونس، وبلغوهم أمرنا بعدم شدّ وثاقه بعد الآن.

وهكذا أصبحت بفضل العقيد المهداوي وسطوته شيئاً مذكوراً، وخرجت من لدن المهداوي وأنا أكاد أطير من الفرح.

❀ ❀ ❀

وانعقدت جلسة المحكمة في تمام الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، وقد كان عليَّ أن أنتظر إلى أن يأتي دوري كشاهد، بعد غازي الداغستاني والجمالي وأحمد مرعي.

وقد أثار اهتمام الضباط والجنود بأمري، استغراب الدكتور فاضل الجمالي، فقال لي وهو كعادته يبتسم: ما هذا؟

قلت: سأقص عليكم القصة في السجن.

وبعد أن انتهت المحكمة من سماع شهادات الشهود الثلاثة الذين سبقوني، صاح منادي المحكمة العريف بصوته الجهوري: الشاهد يونس بحري!.

ودخلت قاعة المحكمة حيث قادني ضابط الخفر الداخلي إلى مكان الشهود الكائن إلى يسار قفص الاتهام، ومشيت بخطى ثابتة موزونة وكأنني القائد المنتصر الذي يستعرض جنوده في ساحة العرض.

وبعد أن حييت رئيس المحكمة، وقفت أستعرض وجوه النظارة، وخاصة وجوه الصحفيين. لقد كانوا جميعاً من معارفي بما فيهم مندوبو الصحف المصرية، وقد توسطهم محمد رفعت مندوب «الأهرام»، فحييتهم بإشارة من يدي، فانفجروا ضاحكين.

فابتسم رئيس المحكمة العقيد المهداوي، وأشار بيده إلى المصحف الكريم الذي يعلو دست المحكمة قائلاً: أقسم بأنك لا تقول إلا الصحيح والصدق.

وبعد أن أقسمت قال: ما اسمك. . . وعمرك، ومحل إقامتك؟

ثم قال: أتعرف المتهم؟

قلت: نعم، وكيف لا أعرفه، وهو الذي استدعاني من بيروت إلى

بغداد لأقوم بإذاعة تعليقات سياسية بتوجيه من قيادة الجيش. وقد اتفقت معه في مكتبه بوزارة الدفاع، وبحضور الشاهدين أمير اللواء الركن غازي الداغستاني نائب رئيس أركان حرب الجيش العراقي والزعيم أحمد مرعي رئيس استخبارات الجيش...



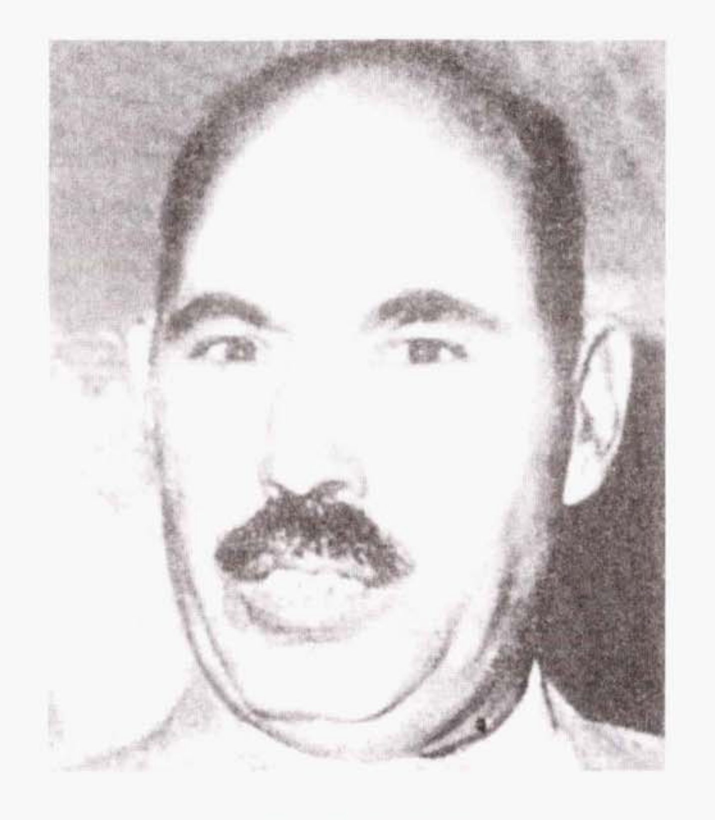
رئيس محكمة الشعب العقيد فاضل عباس المهداوي

قال: ولماذا قبلت العمل مع المتهم هذا؟.

قلت: إن شخصية هذا المتهم لا تهمني، بقدر ما يهمني منصبه، فلقد كان رئيساً لأركان حرب الجيش، وأنا كجندي عراقي أطيع أوامر أي رئيس لأركان هذا الجيش. وقد رجاني بإلحاح أن أقبل العمل وقال لي أمام الشاهدين آنفي الذكر «إن وزارة الدفاع تضع جميع إمكانياتها بتصرفك، وهكذا تم الاتفاق».

وعندها تكلم العقيد ماجد محمد أمين فقال بحدة وعصبية بالغة:

- إن نوري السعيد هو الذي استقدم الشاهد يونس بحري إلى إذاعة بغداد.



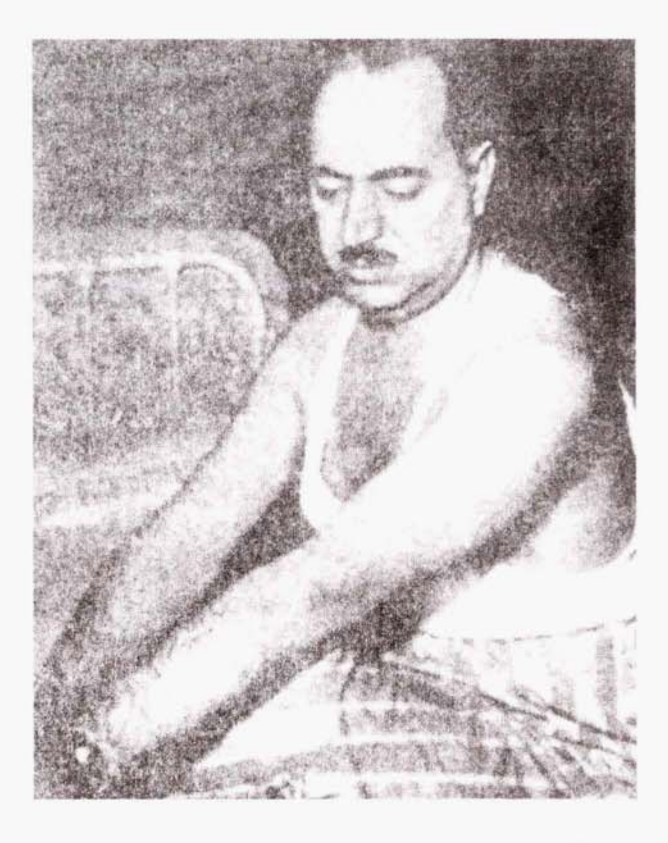
اللواء عمر علي قائد الفرقة الأولى كان معنا في السجن

فقلت وأنا أرد عليه بشدة أذهلت الحاضرين والسامعين:

ـ هذا كذب وافتراء، فنوري السعيد لم يستقدمني، ولم أر وجهه، ولم تكن لي علاقة معه إطلاقاً، بل الذي استقدمني هو هذا المتهم الفريق رفيق عارف رئيس أركان حرب الجيش العراقي، بواسطة الملحق العسكري في السفارة العراقية ببيروت العقيد صالح مهدي السامرائي. وهو سفرني إلى بغداد بالطائرة مع زوجتي، وأمر المتهم الزعيم أحمد مرعي رئيس استخبارات الجيش العراقي بأن أنزل ضيفاً على وزارة الدفاع، لا على الحكومة، وقد تولت رئاسة أركان الجيش صرف نفقاتي بواسطة الزعيم أحمد مرعي، الذي كان يزورني في فندق سميراميس، وهذه الحقائق تنفي نفياً باتاً علاقتي بنوري السعيد. .

كنت أتكلم وأمامي الميكروفون الذي يكبر صوتي ويسجله في إذاعة بغداد لتعيد بث المحاكمة مرتين في ليلتين متتاليتين، وأنا عندما أقف أمام «الميكروفون» أنسى نفسي وأنسى أنني في محكمة أو في مجلس خاص، فيصبح جل همي مركزاً على إرضاء السامعين وإقناعهم.

أطلقت لنفسي العنان أمام الميكروفون، فألقيت خطبة استوحيت مضامينها من ألم المحنة التي اجتزناها ونحن في السجن، فحاولت أن أشفي غليلي ممن أوقعني نحس الطالع بين أيديهم بعد أن هدأ روعي المهداوي. وقد كنت أخطب وأنا أنظر إلى وجه العقيد ماجد محمد أمين المحتقن بغضاً وكراهية لي. وقد حاول مقاطعتي مراراً، ولكن المهداوي



السيد خليل كنه من وزراء العهد الملكي كان معنا في السجن

كان يشير إليه بالكف عن المقاطعة.

وبعد أن تكلمت زهاء ٧ دقائق صفق لي خلالها جمهور الحاضرين في المحكمة، واشترك في التصفيق المهداوي أيضاً، نفد صبر العقيد ماجد أمين وصاح بي وهو يزمجر قائلاً:

ـ لا تخطب.

قلت له: إنني أخطب ودَّك.

قال: لماذا تشتم زعماء العرب؟

قلت: بعض المخطئين من زعماء العرب.

قال: لقد كنت تمدح بعضهم.

قلت: إنني لم أمدح أحداً منهم إطلاقاً، لأنني لم أتعود إلا على النقد والهجوم، وإذا لم أجد من أهجوه فإنني أهجو نفسي، وأهاجم بعض تصرفاتي.

قال العقيد المهداوي وهو يبتسم: إذن أنت حطيئة العراق.

قلت: كلا يا سيادة الرئيس، إنني حطيئة العرب في القرن العشرين.

وكأن هذا الانسجام في المساجلة بيني وبين المهداوي لم يعجب المدعي العام العسكري، فانتهرني قائلاً:

ـ ولماذا كنت تقبض المخصصات من السفارة العراقية في بيروت.

قلت: كنت أقبضها من الدولة العراقية بواسطة السفارة العراقية في بيروت لأنني مقيم وأعمل فيها.

قال: ثمن أي عمل كنت تقبض تلك المخصصات؟



العقيد الركن السابق ياسين محمد رؤوف يغسل يديه في السجن وكان أول من اعتقل بعد الانقلاب

قلت: كنت أقبضها اشتراكاً بجريدتي «العرب»، وثمناً للأعمال التي لا أقوم بها ضد الدولة العراقية.

قال العقيد ماجد أمين: هل إن كل الصحف تقبض؟

قلت: نعم كلها تقبض الاشتراكات.

قال وكأنه يغمز من قناتي: حتى جريدة «الأهرام» القاهرية تقبض؟

قلت: نعم، ومع احترامي للزميل محمد رفعت ولجريدة «الأهرام» أقول إنها تقبض، ولكن على المستوى العالي!

قال: وما معنى المستوى العالي؟

قلت: يعني لا تقبض مثلنا، نحن المتواضعين، مائة أو مئتين أو خمسمائة دينار، بل تقبض بالألوف المؤلفة، ولكن في الماضي أما في العهد الجمهوري فهي لا تقبض.

قال: ولماذا تقبضون؟

قلت: لتحسين وضع الجريدة، وتحسين أحوال المشتغلين بها، فلولا القبض لما وقفت أمام محكمتكم الموقرة وأنا بهذا الهندام الأنيق.

وحاول العقيد ماجد محمد أمين عبثاً شن هجوم كاسح عليَّ، ففي كل مرة تزداد فيها حملته عليَّ، كان العقيد المهداوي يحول النقاش إلى جهة أخرى...

قال المهداوي: ما هو رأيك في الوحدة السورية العراقية؟

قلت: إن الوحدة والاتحاد بين العرب هي أمنية تدغدغ أحلام كل عربي يؤمن بقوميته وعروبته، ولكن الوحدة يجب أن تقوم على أساس الرغبة عند أبناء الأقطار والدول العربية، فإذا ما تقدم الشعب بنفسه ساعياً للعمل على تنفيذ هذه الوحدة، فليست هناك قوة في الوجود تستطيع الحيلولة دون هذا السعي النبيل. أما إذا كان يراد تحقيق هذه الوحدة بقوة السلاح كما يقال إن هذا «المتهم» كان يريدها، فلا خير في وحدة تقام باستعمال العنف والإرهاب والتقتيل.

قال العقيد ماجد أمين: إن المتهم كان يريد باحتلال سوريا وضمها إلى العراق والوصول إلى لبنان لمساعدة كميل شمعون والقضاء على ثورة لبنان، فماذا تقول أنت؟.

قلت: إن شهادتي لا علاقة لها بهذا الموضوع. فالمتهم لم

يستشرني ولم يأخذ برأيي في هذا الصدد، فأرجو حصر السؤال في صلب الشهادة.

۞ ۞ ۞

وأرجعونا نحن الشهود الأربعة إلى السجن، ولكن ضابط الانضباط لم يضع القيود في يدي بل تركني طليقاً أدخن لفائف التبغ بحرية.

وما أن دخلنا مكتب مدير السجن الرئيس أنور، حتى استقبلني الرئيس عبد الستار سبع وهنأني على شهادتي القيمة والممتعة معاً. لقد كان يستمع إلى الإذاعة التي نقلت تفاصيل المحاكمة، وقال لي وهو يربت على كتفي بتودد ولطف: لقد نقلناك إلى سجن «العائدين» ووضعنا فراشك على سرير تبرع به لك أحمد مختار بابان، ووضعنا لك مروحة



السيد رفيق توفيق مدير أمن بغداد السابق كان معنا في السجن

كهربائية «تبرع لك بها» الرئيس أنور، مع طباخ كهربائي تبرعت به أنا.

قلت وأنا أتقبل هذه المكرمات والتبرعات بفائق الشكر والغبطة: ما هذا الفضل الذي أغدقتموه عليَّ؟

ودخلت إلى معتقلي الجديد، وكانوا قد نقلوا أمتعتي وفراشي من سجن الأحداث إلى سجن «العائدين» قبل أن أصل إلى سجن بغداد. وسجن العائدين هو عبارة عن «قاووش» واحد كبير وبشكل مستطيل، أقيم للمجرمين مدة سجنهم ثم يرتكبون جرائم جديدة بعد إطلاق سراحهم، فيحكم عليهم بالسجن من جديد، فيعيدونهم إلى هذا السجن. ولهذا أطلق عليه اسم «العائدين».

وبدلاً من أن أجد في هذا السجن قتلة ومجرمين ولصوصاً ونصابين وجدت فيه النخبة الممتازة من رجال السيف والقلم والديبلوماسية. فلقد وجدت قائد الفرقة الأولى في الجيش العراقي أمير اللواء الركن عمر علي، الذي اعتقل في اليوم الثاني من الانقلاب، لأنه أعلن استنكاره لقتل أفراد العائلة المالكة، وهو في الديوانية، مركز هذا اللواء العراقي ومقر الفرقة الأولى. وقد استدعي للمشاورة في بغداد. وبعد أن حضر اجتماعاً عقده رئيس الوزارة العراقية الجديد مع قادة الجيش، اعتقل، وجيء به إلى هذا السجن!.

ووجدت أمير اللواء الركن عباس علي غالب المدير العام للشرطة، وعبد الجليل الراوي الوزير المفوض العراقي في دمشق الذي أيد الانقلاب وبعث ببرقية إلى بغداد هلل فيها وكبر، ثم استدعي إلى العاصمة العراقية، وعاد إلى دمشق ليجتمع بالرئيس جمال عبد الناصر وأعلن استعداد العراق للتعاون مع الجمهورية العربية المتحدة. ولما عاد إلى بغداد ليطلع المسؤولين على نتائج اتصالاته، تم اعتقاله وجيء به إلى هذا السجن مكبلاً بالأصفاد والأغلال.

ووجدت في سجن «العائدين» معظم المذيعين والصحفيين العراقيين الذين اعتقلوا بعدنا بالتتالي، وهم محمد علي كريم، وديع خونده الملقب بـ «سمير بغدادي» ومال الله الخشاب مذيع أول يوم للانقلاب، ومحمد صوان مذيع العهد السابق الفلسطيني وزوج مذيعة التلفزيون العراقي تغريد الحسيني.

وجاؤوا لنا بضيف جديد هو لؤي بن توفيق السويدي، وقد سألناه عن جريمته فقال: إنني أشتغل بتجارة الأدوية، والجريمة الوحيدة التي ارتكبتها واعتقلوني من أجلها أنني ابن توفيق السويدي.

وأبقونا في هذا السجن أكثر من شهرين ولم يسأل عنا أحد... وهكذا صرنا كمصحف في بيت زنديق!..



العقيد الركن خضر حمودي الملحق العسكري العراقي السابق في القاهرة كان معنا في السجن

وفيما نحن نشتغل بصنع «طاولة» للعب النرد على خشبتين مستطيلتين للتسلية وقتل الوقت، بعد أن اخترعنا عدة للعب «الدومينو»، دخل علينا الرئيس عبد الستار سبع وأبلغنا أن زائراً كبيراً من وزارة الدفاع سيحضر بعد نصف ساعة، فيجب أن نرتدي ثيابنا وأمرني أن أتولى إدارة هذا السجن إلى إشعار آخر.

وفي خلال ربع ساعة ارتدينا ملابسنا، وقمت بتنظيف السجن وترتيب المنامات والحقائب، فصار منظر القاعة لا بأس به.

وكان الرئيس أنور مدير السجن السياسي قد اتفق مع مدير سجن بغداد ليرسل لنا صبياً ليكنس القاعة ويغسل الحمام والمراحيض، ولكن الصبي السجين دخل علينا في ذلك اليوم، وراح يدخن سكائر قد مزج تبغها بحشيش مخدر أدمن السجناء على تدخينه، ويدفعون ربع دينار ثمناً لكل سيكارة حشيش.



عبد الجليل الراوي وزير العراق المفوض السابق في دمشق أمام محكمة الشعب

وأردت أن أجرب سلطتي «الإدارية» مع هذا الصبي السجين فقلت له: يا أخي إن الرئيس أنور قد أمرك بمساعدتي لتنظيف الحمام وبيوت الماء، لا للجلوس وتدخين الحشيش هذا!

فأجاب الصبي بكل

وقاحة وصلافة: أنا لا أتلقى الأوامر منك... وأنا لست مستعدًّا لخدمة «الخونة» أمثالكم.

وما إن سمع سعيد قزاز أقوال هذا الصبي الوقح حتى هجم عليه وراح يشبعه ضرباً ولكماً، كل ذلك والصبي يصرخ في وجوهنا وهو يردد قوله: خونة... كلاب... أذناب الاستعمار. أنا لا أخدم الخونة.

وكان جنود الحرس يقفون وراء باب معتقلنا المقابل لمكتب الرئيس أنور مدير السجن، وهم ينظرون إلى معركتنا، ويهتفون للصبي يشجعونه على الاستزادة من شتمنا.

وبعد دقائق أقبل الرئيس عبد الستار سبع فرأى الصبي واقفاً على الباب وهو شاهر مكنسته علينا ولسانه السليط يمطرنا بالشتائم والمسبات، فانتهره الرئيس سبع وطرده من الباب...

وأعلن الرئيس سبع أن الزائر الكبير سيدخل علينا بعد لحظات. وما إن أتم عبارته حتى أطل علينا الرئيس أنور، وهو يتقدم جمعاً من الضباط الكبار، ولما وقفوا في وسط القاعة راح يقدمنا إلى الزائر المجهول بأسمائنا الواحد تلو الآخر. وبعد أن انتهى الرئيس أنور من مهمة التعريف، ألقى علينا الزائر المجهول أسئلة مختلفة، فأجبنا عليها بما يناسب ذلك الظرف الدقيق الذي اجتزناه بشق الأنفس...

ثم التفت الزائر إلى السيد توفيق السويدي وسأله: لقد كنت وزيراً لخارجية «الاتحاد العربي» المؤلف من العراق والأردن، فما هو رأيك بالثورة؟

فقال السويدي: لا أدري... إنني معتقل الآن. وقد تقاعدت عن السياسة.

قال الزائر: إنك تتهرب من الإجابة بصراحة... وأصرّ على أن يعلم ما هو رأي السويدي بالثورة.

فقال السويدي: أية ثورة؟

فأجاب الزائر: أي ثورة؟ طبعاً ثورة ١٤ تموز؟

وكان السويدي سريع البديهة، فقال: هل تعني ثورة ١٤ تموز الفرنسية يوم تحطيم الباستيل؟

قال الزائر وقد احتدم غيظاً وحنقاً: كلّا، أعني ثورة ١٤ تموز العراقية.

قال السويدي: وما هي قيمة رأينا نحن المعتقلين في الثورة؟

وعندها التفت الزائر نحونا وقال: أين هو فاضل الجمالي؟

قلت مجيباً: إن الدكتور الجمالي مريض، وهو ممدد على سريره هناك. وأشرت إلى زاوية القاعة البعيدة، فنظر إليَّ باستغراب وقال: من أنت؟.

فأجابه الرئيس أنور قائلاً: هذا يونس بحري...

فقال له الزائر وهو يزمجر: هذا هو «النازي» مذيع هتلر، وعدو الشيوعية؟

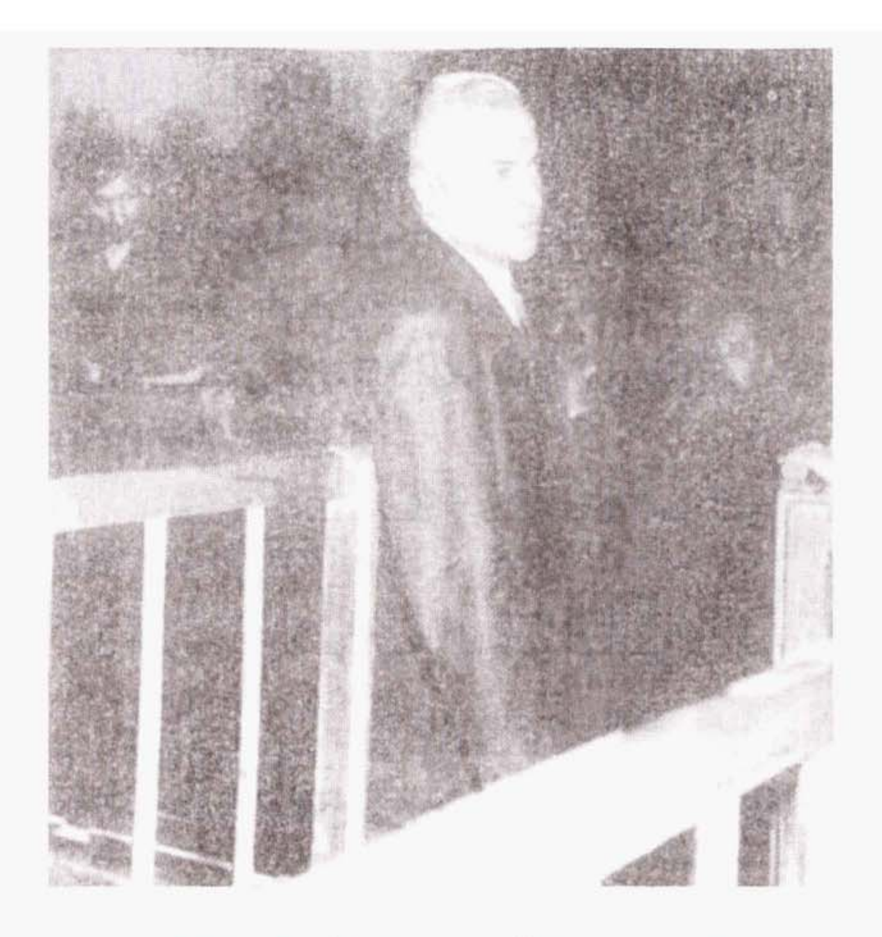
قلت وأنا أبتسم: لست بنازي يا سيادة العقيد!.

قال: وما هو رأيك بالشيوعية اليوم؟

قلت: نفس رأيي بالأمس، لم يتغير ولن يتغير.

قال: الشيوعية عقيدة ونضال...

قلت: إنني أحترم حرية اختيار العقائد... ولكنني عربي أؤمن



السيد سعيد قزاز آخر وزير داخلية في العهد الملكي
يدافع بكل جرأة عن نفسه أمام محكمة الشعب

بعقيدة العروبة فأنا صاحب «حي العرب» وأول من قال بلاد العرب للعرب.

فقال وهو يلوّح بعصاه العسكرية السوداء أمام وجهي: الظاهر أن السجن لم يغير شيئاً في آرائك...

قلت: هل السجن عقاب، أم مدرسة عقائد؟

قال وقد استساغ الجدل معي: الاثنان معاً، فإذا ما أردت أن تغير رأيك فاكتب لي.

قلت: الاسم الكريم والعنوان؟

فأجاب: العقيد طه الشيخ أحمد بوزارة الدفاع.

ثم استدار على عقبيه وانصرف بدون وداع.

إذن هذا هو العقيد طه الشيخ أحمد، الذي أصبح اسمه «بعبع» المعتقلين ويخوف القادة والضباط، فهذا العقيد هو الضابط الشيوعي الأول في الجيش، وهو يستطيع بما لديه من سطوة وسلطان أن يعتقل أكبر رأس في العراق بجرة قلم من يده، وأن يأمر بإطلاق سراح من يشاء متى شاء، ومتى أراد، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وليست هناك قوة مهما عظم شأنها تقدر أن توقف سير قراراته وأوامره.



ـ ٩ ـ

تطورات خطيرة

كانت ليلة السابع من شهر تشرين الثاني ١٩٥٨ من الليالي التي لن يستطيع معتقل أن ينساها فلقد سهرنا جميعاً تلك الليلة ولم ننم لحظة واحدة، فلقد اجتاحت المعتقلات موجات كبيرة متتابعة طول الليل من المعتقلين الجدد من وزراء وضباط وجنود.

وكنت أشاهد المعتقلين الجدد الذين جيء بهم إلى سجن الأحداث، من كوة في الباب الخارجي تطل على الممر المؤدي إلى مكتب مدير المعتقل، فأحصيت أكثر من ١٠٠ معتقل وكلهم من القوميين العرب. أما بقية المعتقلات فقد غصت بألوف المعتقلين، وأهمها سجن أبو غريب، ومعتقل مدارس الشرطة، ومعتقل معسكر الرشيد ومعتقل الدبابات، ومعتقل معسكر الوشاش.

وقد علمنا من المعتقلين بأن السلطات العسكرية قد اعتقلت العقيد عبد السلام عارف وجميع الضباط والمدنيين الذين كانوا يعملون معه أو يتعاونون وإياه، واعتقل كذلك رشيد عالي الكيلاني وابن أخيه مبدر الكيلاني، واعتقل الصيرفي اليهودي خضوري شوعة بتهمة تسهيل تحويل الأموال من بيروت إلى بغداد لتمويل مؤامرة قيل إن رشيد عالي الكيلاني كان يدبرها للإطاحة بالنظام الجمهوري وضم العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة.

ولعل من الصدف الغريبة أنهم اعتقلوا خضوري شوعة وجاؤوا به إلى غرفتنا. بيد أن العقيد صالح عبد المجيد السامرائي الملحق العسكري العراقي السابق في عمان المعتقل معنا طرده من غرفتنا رغم أوامر مدير السجن، قائلاً: لا يجوز وضع يهودي متآمر معنا نحن العرب القوميين.

ولكننا عدنا فسمحنا له بالبقاء في الغرفة التي يقيم فيها الزميل عادل عوني وسعيد قزاز وبهجت العطية. وبعد أن اطمأن خضوري شوعة إلينا روى لنا قصة مؤامرة الكيلاني المزعومة، قال:

- جاءتني رسالة من ولدي المقيم في بيروت تطلب أن أسلم إلى مبدر الكيلاني الموظف في البنك اللبناني مبلغاً قدره خمسة آلاف دينار عراقي حوالة شخصية، وهذا المبلغ هو مبلغ صغير وزهيد بالنسبة للحوالات الكبيرة التي نقوم بها بين بيروت وبغداد وأنا صراف معترف بي رسمياً ومسجل بوزارة المالية. لقد تعرفت على رشيد عالي الكيلاني



السيد رشيد عالي الكيلاني في سجن بغداد



الدكتور نديم الباجة جي وزير الاقتصاد في العهد الملكي

بواسطة ابن أخيه مبدر، وصرت أعرفه جيداً، ولو كنت شاعراً بوجود مؤامرة لديه لكنت أول من يعلم السلطات بها.

قلت: إذن لماذا اعتقلوا الكيلاني وجماعته؟

قال: لأن ميوله «ناصرية» أولاً، وثانياً لأنه صديق تعاون مع العقيد عبد السلام عارف، وكان يزوده بنصائحه وإرشاداته المكتسبة من طول خبرة ومران سياسي.

قلت: وثالثاً؟

قال: لا ثالث للسببين الاثنين.

- ١٠ -

الله موجود

كان الحمام الموجود في سجننا أحسن وأنظم حمام عربي في سجون بغداد. وبوصفي قائماً بأعمال هذا السجن، كنت أشرف على تنظيم دخول المعتقلين للاستحمام بالتناوب. وكان يؤتى بكبار المعتقلين من المعتقلات المجاورة للاستحمام عندنا... وكان على رئيس عرفاء الخفر أن يخبرني سلفاً بأسماء المعتقلين الذين يراد «غسلهم في حمامنا»، لأعيِّن لهم الأوقات المناسبة ليلاً أو نهاراً على حد سواء.

وقدم لي رئيس عرفاء الخفر قائمة بأسماء ثلاثة أشخاص للاستحمام، ولما كان الليل قد أحاطنا بظلمته الكالحة والمطر ينصبّ علينا من السماء كأفواه القرب، بقيت في القاعة الخارجية للحمام، لاستقبال الوافدين الجدد. والظاهر أنهم وصلوا ولم أنتبه إلى وجودهم لانشغالي بتنظيم شعلة موقد الحمام النفطي.

وسمعت فجأة صوتاً يناديني باسمي، وتطلعت إلى مصدر الصوت، فرأيت الرئيس الأول صالح مهدي عماش مدير الدعاية في استخبارات الجيش العراقي، وكان صديقاً لي، وإلى جانبه ضابط برتبة رئيس لم أعرفه لأول وهلة.

قلت: من هذا الضابط؟



الزعيم الركن عبد الكريم قاسم قائد انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق

قال: إنه الرئيس فاضل الساقي!.

فصرخت: من؟ فاضل الساقي!.

قال: نعم، ولكن يا أخ يونس دبر لنا طعاماً فنحن لم نأكل شيئاً منذ ٧٥ ساعة. لقد كانوا يحققون معنا ويضربوننا ضرباً مبرحاً للاعتراف باشتراكنا في مؤامرة عبد السلام عارف. ولكننا لم نشترك في مؤامرة لا نعرف عنها أي شيء إطلاقاً.

قلت: حاضر...

ودخلت على أحمد مختار بابان وقلت له: أتدري من هم المعتقلون الجدد؟

قال: لا

قلت: الرئيس الأول صالح مهدي عماش، والرئيس فاضل الساقي، الرجل الذي ركل طعامنا برجله وصاح بنا في سجن أبو غريب «الله ماكو»، يوم أن سبنا وشتمنا في الأسبوع الأول من انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨.

قال خليل كنة: وماذا يريد الآن؟

قلت: يريد طعاماً، لأنهم استجوبوهما مدة ٧٥ ساعة، ولم يعطوهما شيئاً يأكلانه، ولا دخاناً. وقد تولى ضربهما وتعذيبهما العقيد عبد الجبار هاشم رئيس لجنة التحقيق العسكرية الجديدة للمتآمرين الجدد.

قال المرحوم سعيد قزاز: خذ هذا الطعام وأعطه للمعتقل الجديد... لقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر لأنه صار معتقلاً مثلنا، وزميلاً لنا.

قلت وأنا أضع الطعام أمام فاضل الساقي: هوذا الطعام فكل باسم الله.

قال وهو ينظر إليّ باستحياء ورجاء: سامحني يا أخ يونس على ما بدر مني نحوكم في أول أيام الثورة... فاغفروا لنا هفوتنا لأن الله غفور رحيم.

قلت: أهلاً بك يا ابن العم... إن الله معنا... فلا تيأس ولا

تقنط من رحمته تعالى.

وتكررت المفاجآت، ففي صباح كل يوم ومسائه، كان يطلّ علينا وجه جديد. هذا يحمل جسمه على رجليه حملاً من شدة التعب والإرهاق في لجنة التحقيق، وهذا منهوك القوى من الجوع والعطش والمنع من التدخين، والسهر الطويل المتواصل. وكان المرحوم بهجت العطية، المدير العام للأمن سابقاً، يردد بلهجته الساخرة التي بقيت محافظة على وزنها وطراوتها في كل يوم يمر علينا، ونحن نرى الوزراء والقادة يدخلون السجن أفواجاً، ويقول: **يا جماعة إن القطة تأكل أولادها.**

قلت: من هي القطة؟ ومن هم أولادها؟

قال: هذا التعبير ليس لي أنا، بل هو لأحد قادة الثورة الفرنسية، يوم قال بعد اعتقال روبسبير خطيب الثورة المفوه وداعيتها الأكبر وإعدامه بالمقصلة «إن الثورة تأكل أولادها» مفهوم يا أستاذ؟



المرحوم الزعيم ناظم الطبقجلي



المرحوم العقيد رفعت الحاج سري

قلت: مفهوم طبعاً، والخير فيما اختاره الله.

قال: أراك عصي الدمع، ألا تبكي هذا الوضع الذي وصلنا إليه؟

قلت: لقد جف دمعي. أتراني أبكي منه؟

وهنا تصدى لنا العقيد صالح عبد المجيد السامرائي فقال:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا..

قلت: وماذا تعني يا صاحبي؟

قال: إنني كنت أول من وضع أسس الثورة منذ عام **١٩٥٢** وإن هؤلاء الذين تبنوا الثورة لم يكونوا يومها في العير أو النفير. وإن ملفات وزارة الدفاع والأمن العام تشهد بما أقول، ومن أجل ذلك أبعدني العهد السابق عن بغداد، وعينت ملحقاً عسكرياً في سفارة العراق في عمان.

والعقيد صالح السامرائي شخصية عجيبة للغاية، فهو الذي علمنا طريقة سرية لتهريب الكتب والمخدرات والمشروبات الروحية إلى داخل السجن. وفي كل يوم تقريباً كان يدعونا إلى أكلة تطبخها زوجته في بيته بجانب الكرخ. وكان الطعام يأتينا في حلل كبيرة يحملها المتعهد وصبيانه الثلاثة. وهم يبذلون قصارى جهدهم لتحمل عناء الحمل لثقلها. وكنت أتولى معه عملية تفريغ الطعام وتوزيعه. وبعد أن ننتهي من التوزيع نجد في قعر الحلل زجاجات من المشروبات المفتخرة، تساعدنا على نسيان آلام السجن.

قلت إنٰ العقيد صالح السامرائي كان جريئاً، بل كان أكثر من هذا وذاك: كان سليط اللسان إلى أبعد الحدود، فكلما زارنا رئيس أطباء الجيش الدكتور محمد الشواف وزير الصحة (وشقيق العقيد عبد الوهاب الشواف قائد ثورة الموصل الفاشلة) كان العقيد السامرائي يمطر رجال الثورة من أكبر رجل فيها إلى أصغر جندي أمام سمع إدارة السجن

وبصرهم بالشتائم والمسبات، ثم يهدد ويتوعد إذا ما حدثتهم أنفسهم بمحاكمته. وكان وزير الصحة الدكتور محمد الشواف يطيِّب خاطره، ويعده بأن الحكومة ستنظر في قضيته بعين العدل والإنصاف.

كان العقيد السامرائي يؤكد لنا في كل يوم بأن في استطاعته أن يهرب من المعتقل أو من أي سجن كان عندما يشاء، وفي أي وقت كان. وكنا في الواقع نعتقد بأن أقواله هذه متعة عابرة لا يمكن تصديقها البتة، خاصة وأن الحراسة القوية المشددة المقامة علينا لا تمكن عصفوراً أن يفلت من بيننا، فكيف برجل ضخم الجثة كالعقيد السامرائي الذي يبلغ وزنه ١٢٨ كيلوغراماً؟

ولكن الأيام التي أعقبت تصريحات السامرائي تلك قد برهنت على صحة أقواله، وعلى أنه فعّال لما يريد.

لقد تمارض العقيد السامرائي، وكتب رسالة إلى الزعيم عبد الكريم قاسم طالباً إليه نقله إلى المستشفى العسكري في معسكر الرشيد للتداوي. ووافق رئيس الوزراء على نقله إلى ذلك المستشفى. وبعد مرور مدة على نقله إلى هناك، أعلن الحاكم العسكري أمير اللواء أحمد صالح العبدي بأن العقيد المتقاعد صالح عبد المجيد السامرائي قد هرب من المستشفى العسكري في معسكر الرشيد إلى جهة مجهولة، وبأن جائزة مالية قد وضعت لمن يدلي بمعلومات تدل على محل وجوده.

أما كيف هرب السامرائي فإنني أترك له شخصياً رواية قصته بعد أن اجتمعت به فيما بعد في بيروت في مطعم البحرين المطل على شاطىء الزيتونة قال:

ـ لم يكن أمامي للخلاص بحياتي من موت تدريجي أكيد إلا الهرب من السجن ومن بغداد والعراق، فلقد كنت واثقاً من أن جماعة

العقيد طه الشيخ أحمد تريد القضاء عليَّ مهما كلف الأمر بدون محاكمة أو ضجة، فأنا أعرف جميع الأسرار التي عمت التطورات العسكرية والسياسية منذ سنة ١٩٥٢ حتى يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ وما بعده.

ثم أردف قائلاً: لقد تمسكنت زهاء ثلاثة أشهر في المستشفى العسكري، إلى أن تمكنت من إحراز ثقة الحراس والضباط والأطباء. وكنت أغدق عليهم الهدايا، وأشركهم في طعامي وشرابي، إلى أن حانت الفرصة لتدبير خطة الهروب بصورة محكمة بالاتفاق مع الأصدقاء في خارج المستشفى، وكنت على اتصال يومي بهم.

«وفي الليلة التي تقرر فيها هروبي أقمت وليمة فاخرة للحرس ولضابط الخفر، فأكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً، كالعادة الجارية في كل ليلة. ولكنني وضعت لهم مخدراً في الطعام والشراب عند منتصف الليل، فناموا نومة أهل الكهف، فأخذت المفاتيح من جيب ضابط الخفر، وارتديت ملابس بدوي، وكانت سيارة تنتظرني على الطريق المؤدي إلى نهر ديالى، فركبتها إلى أن أوصلتني إلى قارب على شاطىء نهر دجلة، فعبرنا النهر حيث وجدنا على الشاطىء الآخر سيارة أوصلتنا إلى مكان ما أقمت فيه بضعة أيام، إلى أن هدأت موجة البحث عني. وعندها عبرنا الصحراء فوصلنا بالسلامة إلى دمشق، ثم إلى بيروت.



- ١١ -

كيف تم الانقلاب؟

إن ما دونته وسأدونه في هذا الكتاب ليس فقط القصة الواقعية التي حدثت لي. بل قصة كل فرد من أفراد الشعب العراقي الذي يكون مجموعه ٧ ملايين نسمة من إناث وذكور... وشيوخ وأطفال...

هي قصة دامية مريرة مروعة، أحكيها كما عشتها مع من أسعفهم نكد الطالع على أن يعيشوا هاتيك الساعات والأيام والشهور الكالحة السوداء في العراق العربي. سواء من كانوا وراء قضبان السجون والمعتقلات المحدودة المساحات والحجم... أو من كانوا يحيون حياة الرعب والفقر والفاقة ضمن حدود السجن الكبير الذي كان يسمى «العراق».

إنني في هذه القصة لم أتطرق إلى ذكر رجال الحكم العتيد في العراق... ولا إلى نظام حكمهم الذي اختاروه لأنفسهم فارتضوه نهجاً يسيرون عليه... بل تطرقت إلى تدوين ما لقيناه ولقيه كل فرد من أفراد المعتقلين الذين كانوا يؤلفون بمجموعهم رجال دولة ما قبل ١٤ تموز ١٩٥٨ الذين توارثوا الحكم منذ أن قامت دعائم المملكة العراقية في ٢٣ آب ١٩٢١... فسردت حياتنا في السجن، وسردت بعض الأقوال التي قيلت في التعليق على الثورة...

روى لي المرحوم سعيد قزاز وزير داخلية العراق، ونحن في سجن

الأحداث ببغداد كيف علم بنبأ «الانقلاب العسكري» قال:

ـ كنت في داري أضع تقريراً عن الحالة في العاصمة، وأنا لم أنم في ليلة ١٣ ـ ١٤ تموز ١٩٥٨. ففي الساعة الرابعة والنصف صباحاً زارني السيد بهجت العطية مدير الأمن العام ومعه مساعده المرحوم نائل، فأكد لي السيد العطية بأن اللواء العشرين الذي سيمر ببغداد في طريقه إلى الأردن سيقوم بانقلاب عسكري. وكان قد اتصل به المفوض خضر العبيدي، آمر مخفر جسر «الخر» القريب من قصر الرحاب، وأبلغه بأن العقيد عبد السلام عارف مر بالمخفر وتوقف عنده، حيث اتصل تلفونياً بمعسكر الوشاش وطلب مخاطبة الرئيس الركن عبد الستار سبع. ثم التفت إليه وقال: «أعط العقيد ياسين محمد رؤوف الموجود في سيارتي جرعة ماء»».

وقال العبيدي للقزاز: ولما جئت الى العقيد ياسين، رأيته موثوقاً بالحبال، وهو يئن من شدة الألم. فلقد كان يتحمل الضرب بالعصي منذ مغادرة بعقوبة إلى بغداد. وبعد أن شرب العقيد ياسين الماء، قال لي ما معناه: إنهم سيحتلون بغداد ويعلنون الجمهورية ويقتلون نوري السعيد والعائلة المالكة أخبر مدير الشرطة ومدير الأمن العام».

«وخرج العقيد عبد السلام عارف من المخفر، وكنت أقف عند المدخل بعيداً عن سيادته، فقال لي: أنت ورجالك تحت الإنذار... فلا تدع أحداً يغادر بغداد إلا بأمر مني... إنني سأكون بدار الإذاعة فاتصل بي تلفونياً عند اللزوم».

وكان العقيد ياسين آمر الفوج الثاني في اللواء العشرين، قد رفض مشاركة العقيد عارف في الانقلاب، فاعتقله.

مرت أمام خاطري ذكريات العهد الملكي في العراق، وأنا أستمع إلى صوت مذيع انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ يردد: «هنا بغداد... إذاعة الجمهورية العراقية».

منذ ٢٣ آب ١٩٢١، ذلك اليوم الذي احتفل فيه أهل العراق بتتويج الملك فيصل الأول ملكاً ديمقراطياً دستورياً على العرش، إلى اليوم الذي نودي بغازي الأول ملكاً على العرش العراقي، إلى الليلة العبوس القمطرير التي قتل فيها الملك غازي في قصر الزهور ببغداد، ليلة ٤ نيسان ١٩٣٩، ثم إلى مقتل القنصل البريطاني المستر مونك في الموصل في صباح يوم ٤ نيسان الباكر، فإعلان الأمير عبد الإلٰه وصيّاً على عرش العراق لأن الملك فيصل الثاني يوم ورث عرش والده غازي في يوم ٤ نيسان ١٩٣٩ لم يكن قد تجاوز الثلاثة أعوام من عمره.

هذه الأحداث الجسام في تاريخ العراق العربي مرت بي، وأنا أنتقل معها من طور إلى آخر، فأقارن بين خيراتها وشرورها... وبين خسائر العراق ومكاسبه، وبين حسنات رجاله وأخطائهم، وبين ما قاموا به وقدموه من أعمال وخدمات صارت من حق التاريخ أن يسجلها عليهم، والحسنات يذهبن السيئات.

وحسبت أيام هذا الشريط السينمائي الذي سجلته ذاكرتي، من يوم ٢٣ آب إلى يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ فبلغت ٣٨ عاماً وشهراً واحداً وعشرة أيام...

إنها عمر الحكم الملكي الهاشمي في العراق...

يقيناً إن هذا الانقلاب العسكري، أو انقلاب إذاعة بغداد، لم يدهشني قط... ولكنه حرك في نفسي ذكريات أول انقلاب عسكري

قمنا به في العراق، بقيادة اللواء بكر صدقي في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٣٦. تذكرت كيف قمنا في صباح ذلك اليوم باعتقال رئيس الوزارة العراقية المرحوم ياسين باشا الهاشمي، وبقية أعضاء وزارته ومنهم السادة رشيد عالي الكيلاني ونوري السعيد وعلي ممتاز الدفتري، والمرحوم رستم حيدر رئيس الديوان الملكي، أما وزير الدفاع العراقي المرحوم جعفر العسكري فقد قتله بعض ضباط بكر صدقي في طريق بعقوبة، وعلى مقربة من «كاسل بوست» التي تبعد ٣٠ كيلومتراً من بغداد، وهي النقطة التي انطلق منها العقيد عارف لاحتلال بغداد.

لقد أوفد مجلس الوزراء يومئذ جعفر العسكري لملاقاة الجيش الزاحف على بغداد، لمفاوضة قائد الحملة وزعيم الانقلاب الأول بكر صدقي لإيقاف الزحف وتلبية مطالبه. واختيار جعفر العسكري لهذه المهمة الخطرة كان له مغزى خاص عند العسكريين قبل المدنيين، فلقد كان جعفر العسكري في الواقع «أبا الجيش» العراقي، بوصفه المؤسس الأول لهذا الجيش، وكان أول وزير للدفاع في الوزارة العراقية الأولى في سنة ١٩٢٠.. فأسس المقر العام للجيش في يوم ٦ كانون الثاني ١٩٢١ وعين نواة الجيش من بعض الضباط الذين كانوا معه في الجيش العثماني من قبل، وفي الجيش الهاشمي في الحجاز ثم في سوريا. ثم عاد إلى بغداد.

وكان المرحوم جعفر العسكري يومئذ يحمل رتبة فريق في الجيش، في حين أن نوري السعيد كان يحمل آنذاك رتبة عقيد، فاختار صهره جعفر العسكري أول رئيس لأركان حرب الجيش العراقي الفتيّ.

ولما علم بكر صدقي بقدوم جعفر العسكري أصدر أمره بقتله، فنفذ أمره الضباط جمال جميل (الذي أعدمه الإمام أحمد ملك اليمن عندما كان مديراً عاماً للأمن في اليمن إثر قيامه بقتل الإمام يحيى حميد

الدين سنة ١٩٤٨) وإسماعيل توحلة (مدير شرطة الموصل) وحسين جواد، وحسين الدليمي. وكان اغتيال جعفر العسكري أول مسمار دق في انقلاب بكر صدقي، إذ أثار حفيظة الضباط الكبار في الجيش العراقي على بكر صدقي وحملهم على الاحتجاج لدى الملك غازي.
ويقال إن بكر صدقي كان متفقاً مع الملك غازي على انقلاب أبيض، ليتخلص من وزارة الهاشمي ومن رشيد عالي الكيلاني، بغية إضعاف النفوذ البريطاني في العراق. وكان غازي رحمه الله معروفاً بشدة ميله لألمانيا، وتربطه شخصياً روابط وثيقة مع هتلر بواسطة سفير ألمانيا في العراق والسعودية الدكتور فريتز غروبا، الذي كان وما يزال من أعز أصدقائي، وهو الذي مهد لي الطريق واختارني لتأسيس إذاعة برلين العربية والقيام بإدارتها والإذاعة فيها من ٥ نيسان ١٩٣٩ إلى ٢ مايس ١٩٤٥.

شاهد عيان يتكلم
عن الليلة الأخيرة لمجزرة قصر الرحاب

كنت، وأنا أرهف السمع إلى بيانات العقيد عبد السلام عارف من إذاعة بغداد، أدقق في بعض التعليقات القصيرة التي يذيعها في الفترات التي كانت تتعاقب بعد هاتيك البيانات وكانت تبدو للسامع كفصول متسلسلة من رواية خيالية. وحاولت في خلال العبارات أن أفهم شيئاً يوضح الوضع السائد ببغداد إثر هذا الانقلاب الصاعق. ولكنه بدا لي أن عبد السلام عارف نفسه كان في نبرات صوته المتهدجة المرتعشة حائراً وجلاً، لأنه كان ينتظر من خارج الإذاعة أخباراً مطمئنة.

وفي الساعة السابعة والدقيقة ٢٥ أعلن عارف للمرة الأولى بأن «عدو الإله وسيده» يقاومان في قصر الرحاب، وفي الحقيقة إن إعلان «المذيع عارف» نبأ مقاومة «عدو الإله وسيده» كان مناورة لإيهام الناس أن سيدي قصر الرحاب يقاومان الثورة بقوة السلاح، في حين أنهما كانا في عداد الأموات في ذلك الوقت.

روى لي العقيد ياسين محمد رؤوف عندما كنا في سجن الأحداث ببغداد معتقلين قصة لم ينقلها أحد إليه، بل كان هو شاهدها الأول والأخير في صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨. قال:

ـ أنت تدري أنني كنت قائد الفوج الثالث من اللواء العشرين. وكان واجبه في ليلة ١٤ تموز اجتياز بغداد وعبور جسر الملك فيصل

الأول إلى الكرخ لنستمر في طريقنا في محاذاة خان بني سعد بعد أن عبرنا نهر ديالى من بعقوبة، إلى الأردن، ثم جاءني العقيد عبد السلام عارف ونحن نسير وأفضى إليَّ سراً بأن الجيش سيقوم الليلة بانقلاب عسكري، وسينفذ أمر قتل الملك وولي عهده وبقية أعضاء العائلة الهاشمية المالكة. . .

وأردف العقيد ياسين محمد رؤوف إلى ما تقدم قوله:

ـ تحدثت إلى زميلي العقيد عبد السلام عارف بصراحة وبحرية، فلقد كنت أقدم منه رتبة ودرجة، فهو مجرد عقيد، وأنا عقيد وركن مجاز، وأنا أقدم منه سنتين في الخدمة ومرشح لرتبة زعيم ركن.

«قلت لعبد السلام عارف: إنني أوافق على القيام بالثورة، أما قتل الملك وولي العهد وبقية أفراد العائلة المالكة فلا أوافق عليه أبداً. . .

«قال عبد السلام: إذن شو نسوي بيهم؟

«قلت: نطردهم كما طرد الرئيس جمال عبد الناصر الملك فاروق وعائلته، ونجعل ثورتنا بيضاء خالية من الشوائب.

«لم يجبني عبد السلام، بل رفع عصاه العسكرية وراح يضربني بها كيفما اتفق وهو يصيح معربداً: «خائن متآمر قذر.» ثم صاح بالجنود الواقفين وراءه: «شدوه بالحبال واربطوه داخل سيارتي».

«واستمر عبد السلام عارف في إهانتي وضربي والبصق عليَّ إلى أن وصلنا دار الإذاعة العراقية فطوقها بجنوده، وأدخلني معه إلى غرفة مدير الإذاعة حيث احتلها وأمر المهندسين بتشغيل الإذاعة والاستعداد للبثّ. . .

«وأمر بربطي بحديد نافذة الغرفة وأنا فاقد الشعور تقريباً منهوك القوى، ولم يسمح لي بشرب جرعة من الماء إلا عندما مررنا بمخفر شرطة جسر الخر حيث أبلغت مفوض شرطتها، وهو شاب قامت بتربيته

العائلة الهاشمية المالكة ومحسوب عليها، أن يبلغ الجهات المختصة بأن العزم أكيد على قتل الملك والعائلة المالكة...».

ويقول العقيد ياسين محمد رؤوف: «كنت أشاهد العقيد عبد السلام عارف منذ أن دخلنا الإذاعة بعد احتلالها وهو يروح ويغدو خائفاً بادي الاضطراب ووجهه أصفر شاحب. وكان في كل مرة يدخل الغرفة يسبني ويبصق عليَّ وهو يقول: «والله يا ابن الكلب إذا لم ننجح سأقتلك قبل أن نخرج من هنا».

«وفي الساعة السابعة والربع حدثت ضجة في حديقة دار الإذاعة عند المدخل، وأخذت أسمع أزيز سيارات الجيب وقعقعة السلاح. وكان عبد السلام عارف غارقاً في ذهول مخيف حتى أنه كفّ عن شتمي، وحتى أن هذه الضجة غير المعتادة في حديقة الإذاعة لم تخرجه من ذهوله...

وبدون أن يطرق باب الغرفة طارق، فتح الباب ودخل ضابط نحيف القامة مربوعها وملابسه ملطخة بالدماء، ويحمل مدفعاً رشاشاً «ستن» بيمينه، وما أن رآه عبد السلام حتى هبَّ واقفاً من مقعده مذعوراً ولم يتفوه إلا بكلمة واحدة: ها؟

لم يجب الضابط شيئاً، بل هجم على العقيد عارف وطوقه بيديه، وراح يقبله بجنون وهو يبكي من شدة الفرح، حتى أنه لم يستطع الكلام. وعبثاً حاول عبد السلام عارف إبعاده عنه ليفهم ما كان يريد أن يفهمه منه.

وبعد مضي دقيقة على هذا المنظر الدراماتيكي العنيف، تمكن الضابط الوافد من الكلام، وأول كلمة قالها: **كتلناهم.**

وعندئذ هجم العقيد عبدالسلام عارف بدوره على الضابط الرئيس

عبد الستار سبع وراح يشبعه تقبيلاً، ويربّت على كتفه وكأنه يسدد إليه لكمات قوية، وراح يصيح بأعلى صوته: الله أكبر! الله أكبر! يا ولد (مخاطباً مهندس الإذاعة والموظفين) اعزفوا أسطوانة «الله أكبر على المعتدي».

«والتفت إليَّ عبد السلام عارف ـ أي إلى العقيد ياسين ـ وضربني على رقبتي بعصاه العسكرية، وهو يقول: نجحنا خلصت يا كواد! كتلنا أسيادك يا خائن!.

ثم جلس إلى المكتب، وخط بضعة أسطر، ثم اندفع إلى غرفة الإذاعة كالسهم المارق، وهو يردد: الله أكبر انتصرت الثورة!.

«وتقدم إليَّ الرئيس عبد الستار سبع وقال لي بأدب: اسمح لي سيدي أن أفك وثاقك وآخذك معي إلى معسكر الوشاش... فلا تحاول أن تهرب».

قلت: يا رئيس عبد الستار إلى أين أهرب؟

وقبل أن ينتهي الرئيس عبد الستار من فك وثاقي عاد عبد السلام عارف إلى الغرفة وهو يردد قوله:

ـ لقد أذعت بأن عدو الإله وسيده «يعني فيصل الثاني» يقاومان الثورة في قصر الرحاب.

ثم لما رأى الرئيس عبد الستار يحل وثاقي ويجاملني قال له:

ـ ماذا تفعل يا أخي؟ هذا خائن متآمر... قذر.

فالتفت إليه الرئيس عبد الستار وأجابه بحدة قائلاً: أرجوك شوف شغلك أنت... وأنا أشوف شغلي.

فقال عبد السلام عارف وهو يغتصب الابتسامة اغتصاباً:

ـ داد عبد الستار... آني دا أتشاقة وياك... خذه وين ما تريد.

- ١٢ -

مجزرة بغداد بعد مجزرة قصر الرحاب

ما إن علم العقيد عبد السلام عارف بأن العائلة الهاشمية المالكة ببغداد قد أبيدت حتى أخذ يكتب ويذيع ما يتراءى له من وحي الساعة من أوامر وبيانات... ثم أخذ يحث الشعب على الهجوم على قصر الرحاب، ويحرضه على قتل عدو الإله وسيده... ووضع جائزة مالية قدرها عشرة آلاف دينار لمن يأتي بنوري السعيد إلى وزارة الدفاع حياً أو ميتاً... إذ إن نوري السعيد قد هرب من قصره عندما سمع طلقات الرصاص الأولى في فجر يوم ١٤ تموز ١٩٥٨..

ولما سمع أهل بغداد بالتحريض على مهاجمة قصر الرحاب وقصر نوري السعيد خرجوا من دورهم تحدوهم الرغبة في القتل والفتك والسلب والنهب... وكان في بغداد ولا يزال زهاء ٣٠٠ ألف من جنوب العراق وهم يعيشون في بيوت من سعف النخل تسمى صرائف هجروا ديارهم من جراء القحط الذي شمل العراق في السنين الغابرة فجاؤوا إلى بغداد طلباً للرزق والعمل... وإنك لتراهم في كل تظاهرة أو عيد يهتفون مع الهاتفين بمناسبة أو بدون مناسبة... وفي استطاعتك أن تثير ثائرتهم بكلمة أو بكلمتين ليهجموا على أكبر ثكنة عسكرية بدون وعي أو إدراك... فكيف وقد دعتهم إذاعة الثورة للهجوم على قصر الرحاب وقصر نوري السعيد بعد أن رسخت في أذهانهم الأساطير المترادفة عن وجود الكنوز والجواهر والأموال

المكدسة في خزائن عبد الإله ونوري السعيد. . .

لقد صار كل فرد من أبناء الشعب في بغداد يتطلع بشغف زائد وباهتمام ما بعده اهتمام للعثور على نوري السعيد والقبض عليه وسوقه إلى وزارة الدفاع حياً أو ميتاً. . . لا ليحصل على شرف القبض عليه. . . بل ليقبض الجائزة الكبرى. . . جائزة إذاعة بغداد وقدرها عشرة آلاف دينار نقداً وعدًّا. . .

وما إن دقت الساعة العاشرة صباحاً حتى كانت بغداد تزخر بالضحايا. . . وسالت الدماء مدراراً كالسيل العرم في شارع الرشيد. . . وأصبح الناس كلما رأوا شخصاً يسحل بالحبال وهو حي يصفقون ويهللون. . . ويهتفون بحياة قادة الثورة وهم لا يعرفون منهم إلا العقيد عبد السلام عارف. . . أما الزعيم الركن عبد الكريم قاسم فلم يذكر اسمه في خلال اليومين الأولين من الثورة الحمراء إلا نادراً ضمن البيانات القليلة التي أعلنت من إذاعة بغداد.

لقد قتل وسحل الكثيرون في صباح ذلك اليوم من عراقيين وأردنيين وأميركان وبريطانيين. . . وأحرق الناس دار السفارة البريطانية، وحطموا تمثال الملك فيصل الأول. . . وتمثال الجنرال مود قائد الحملة البريطانية التي احتلت بغداد سنة ١٩١٦ ونهبت المتاجر. . . واعتدي على السكان وهم في بيوتهم. . . وصار كل من له حزازة عند آخر يهاجمه وهو في عقر داره ويمثل به شر تمثيل.

وكانت الطامة الكبرى في فتح السجون أمام المعتقلين السياسيين وجلهم من الشيوعيين وذوي المبادىء الهدامة. . . فانطلقوا ينتقمون لأنفسهم ولمبادئهم وأصبحت بغداد وكأنها أتون مستعر من نيران ودماء. . . وأشلاء الضحايا متناثرة في الشوارع. . .

لقد رأيت الناس يسحلون البقية الباقية من جثة عبد الإله بعد أن مثلوا بها تشفياً وانتقاماً منه... ثم علقوا جثته على باب وزارة الدفاع.

وكان يكفي أن يشير أي إنسان إلى أي شخص بأصبعه قائلاً: هذا فاضل الجمالي... لينقضّ الناس على ذلك الشخص فيوثقوا رجليه بالحبال ويجري سحله بدون رحمة أو شفقة وهو يصرخ ويستغيث بالله وبالأنبياء وبمختلف أسماء الملائكة والجن ولا من مغيث أو معين.

لقد تعطل جهاز الدولة تعطيلاً كاملاً... واختفى رجال الأمن والشرطة، وحتى رجال الجيش لازموا ثكناتهم البعيدة عن العاصمة... ولكن الجنود الذين كانوا في المخافر الداخلية اشتركوا اشتراكاً فعّالاً في أعمال القتل والسحل والسلب والنهب... ولم يتقدم أي مسؤول لردعهم عن تلك الأعمال... ولكن من هو المسؤول في ذلك اليوم؟ لم يكن هناك أي إنسان يمكن أن نسميه «مسؤولاً»!.

وانتشرت الإشاعات وتكاثرت... فمن قائل إن الشعب قد فتك بفاضل الجمالي وقد شوهد مسحولاً في شارع الرشيد... وآخر يزعم مؤكداً بأن توفيق السويدي قد قتل ثم سحل في جانب الكرخ إلى أن تقطعت أوصاله إرباً إرباً.. وهكذا صار الناس يقتلون رجال العهد الملكي «غيابيًّا» فبمجرد إطلاق إشاعة يتلقفها الناس على علاتها دون تمحيص. ولماذا لا يصدقون هذه الإشاعات، وقد شاهدوا جثة عبد الإله... أو ما تبقى من تلك الجثة تسحل في شوارع بغداد ثم تعلق على باب وزارة الدفاع في باب المعظم!!.

حملة الاعتقالات بالجملة..

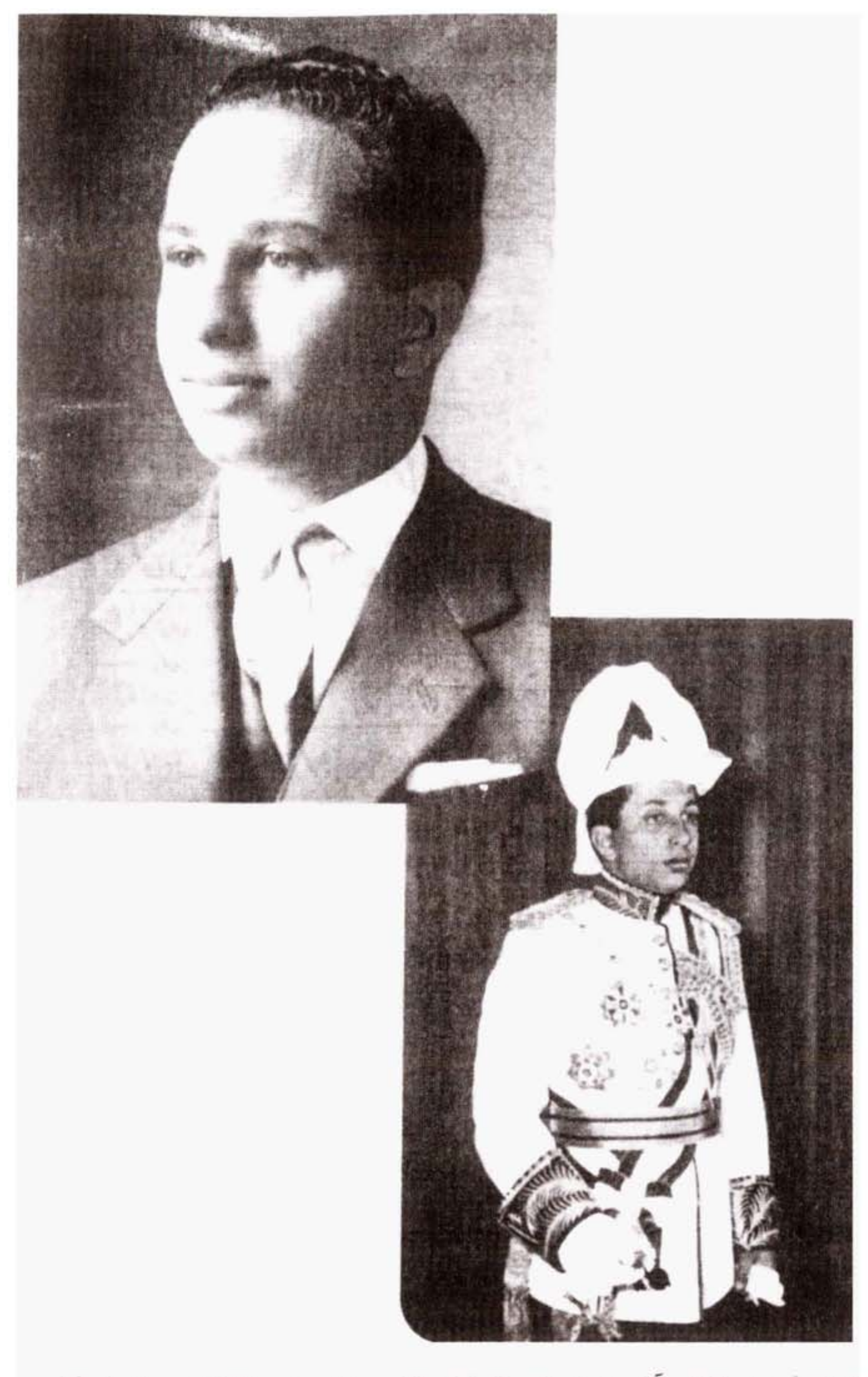
ومنذ الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ١٤ تموز أصدر العقيد عبد السلام عارف إلى دائرة الانضباط العسكري التي وزعت

رجالها على مختلف مخافر الشرطة في العاصمة أمراً بإلقاء القبض على جميع الوزراء العراقيين، وكذلك أعضاء وزارة الاتحاد العربي المؤلفة من العراقيين والأردنيين... والمدراء العامين... والمتصرفين... وأمين العاصمة ومدراء الأمن العام والشرطة العامة. ورجال الدعاية والإذاعة وبعض أرباب الصحف...

قصر الرحاب لا يجيب!

روى لنا المرحوم بهجت العطية مدير الأمن العام العراقي كيف تم اعتقاله قال: ما إن سمعت بدخول اللواء العشرين بغداد، وانتشار رجال الانضباط العسكري في مخافر الشرطة حتى اتصلت هاتفياً بمدير الشرطة العام أمير اللواء الركن عباس علي غالب وبمتصرف بغداد عبد الجبار فهمي فتم الاتفاق على أن نجتمع في متصرفية بغداد بالسرعة الممكنة لنتدبر الأمر احتساباً للطوارىء... وفي الساعة السادسة كنا مجتمعين نحن الثلاثة في المتصرفية، وبعد أن اتصلنا بوزير الداخلية سعيد قزاز أكد لنا بأنه سيحضر اجتماعنا بعد قليل... ولكنه لم يتمكن من الحضور... لأن الجماهير التي فلتت من عقالها حالت دون مرور أية سيارة في شارع الرشيد... وهكذا لم نجتمع بوزير الداخلية إلا في سجن أبو غريب...

ويقول بهجت العطية: لقد حاولنا الاتصال تلفونياً بقصر الرحاب مراراً عديدة، ولكن دون جدوى، فالقصر لا يجيب، إذ قطعت أسلاك التلفون قبل المجزرة الرهيبة بدقائق. واتصلنا بمخفر جسر الخر القريب من قصر الرحاب في الساعة السابعة والربع وكان الخط غير مقطوع فأكد لنا الشرطي الخفر بأن كل شيء قد انتهى... إذ قتلت العائلة المالكة وقصف قصر الرحاب... وأن الناس تتجمع حول القصر من كل حدب وصوب.



الملك فيصل الثاني آخر ملوك العراق الذي قضي عليه بعد الانقلاب عام ١٩٥٨



نعيمة العسكري وزوجة نوري باشا السعيد وهو الواقف على يسارها وعلى يمينها يظهر ولدهما صباح السعيد الذي قتل بعد انقلاب عام ١٩٥٨



نوري السعيد رئيس وزراء العراق مع الفريق الركن رفيق عارف رئيس أركان الجيش
في استعراض الجيش الذي سبق يوم الثورة

وأراد متصرف بغداد عبد الجبار فهمي تطبيق خطة القيام بهجوم معاكس بواسطة مفارز الشرطة ورجال الأمن مؤكداً لنا بأن قوات الشرطة الآلية وحدها كافية لإعادة الاستقرار والسيطرة التامة حتى على اللواء العشرين في حالة إعلانه المقاومة. . .

ولكن أمير اللواء عباس علي غالب مدير الشرطة العام أوصانا بعدم القيام بأية محاولة لاستعمال القوة وقال: طالما أن الملك وولي العهد قد قتلا. . . وأن رئيس الوزارة الاتحادية نوري السعيد قد هرب إلى جهة مجهولة. . . فلنترك الحالة تأخذ مجراها الطبيعي. . . إذ إننا لم نعد مسؤولين عن أي شيء. . . والمسؤول الأول والأخير هو الجيش.

وقد وجهت ذات مرة ونحن في سجن الأحداث ببغداد سؤالاً إلى السيد عباس علي غالب مدير الشرطة العام. . . ولماذا لم تهربوا من بغداد؟ فقال مجيباً على سؤالي: وكيف نهرب والشوارع غاصة بالجموع الغاضبة. . . إننا بحكم وظائفنا من الرجال المعروفين من الجمهور. . . فمجرد رؤيتهم لنا يحملهم على قتلنا وسحلنا بدون مناقشة أو تردد، فمن أجل ذلك قررنا البقاء في المتصرفية المحصنة والمحروسة بعدد لا بأس به من رجال الشرطة. . .

في السجن...

وهكذا انتظرنا تطورات الموقف. . . ولم نلبث أن فوجئنا بسيارات جيب ثلاث نزل منها ضابط من الشرطة العسكرية برتبة رئيس وهو يحمل ورقة كتبت عليها أسماء كثيرة لإلقاء القبض على أصحابها. . . وبدون تحية أو مقدمة راح ينادينا بأسمائنا نحن الثلاثة ـ عباس علي غالب. . بهجت العطية. . . عبد الجبار فهمي!!.

فقلنا بصوت واحد: حاضر!!.

قال: هيا تفضلوا إلى وزارة الدفاع، وعليكم أن تلتزموا الصمت.

وفي وزارة الدفاع وضعونا في الموقف الخاص بالانضباط العسكري في انتظار أوامر جديدة.

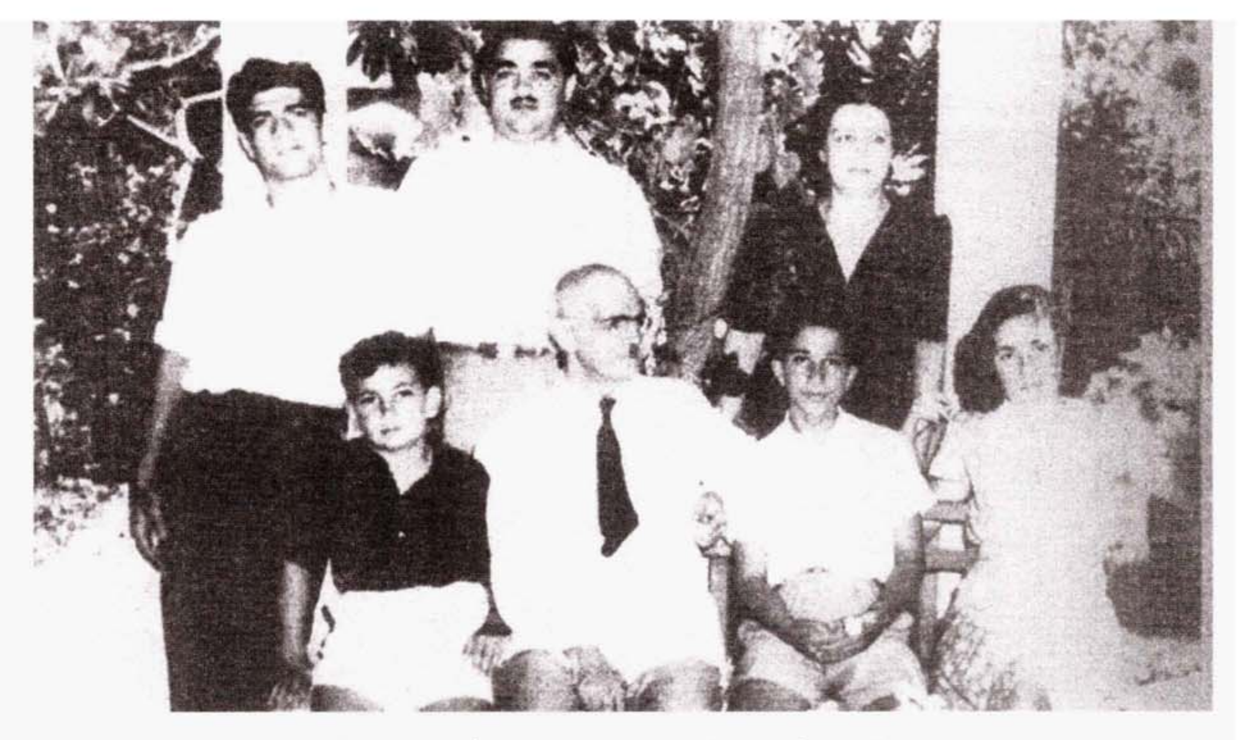
ثم نقلونا في ليلة الخامس عشر من تموز إلى معسكر الوشاش حيث رأينا من سبقنا إلى هناك وكانوا: سعيد قزاز، برهان الدين باش أعيان، أحمد مختار بابان، خليل كنة، خليل إبراهيم، رشدي الجلبي، عبد الوهاب مرجان، برهان أسعد متصرف الديوانية... رفيق عارف رئيس أركان الجيش، غازي عبد الكريم نائب سامراء، عبد الرزاق علي السليمان نائب الدليم، عبد الرحمن السامرائي مدير مكافحة الجرائم بالشرطة العامة... نائل سلطان مساعد مدير الأمن العام... رفيق توفيق مدير أمن بغداد... **والدكاترة الوزراء**: عبد الكريم الأزري، عبد المجيد القصاب، عبد الحميد كاظم، عبد المجيد محمود، نديم الباجه جي...

وعند منتصف تلك الليلة جيء بعدد كبير من قادة الجيش والضباط المعتقلين يبلغ مجموعهم زهاء ١٥٠ ضابطاً... ولم يسمح لنا بالنوم لأن الضباط الخفر كانوا يقومون بعمليات الفرز والإحصاء... ووضع قوائم بأسماء المعتقلين الذين كانوا يتقاطرون علينا تباعاً أثناء الليل ونهار ١٥ تموز ١٩٥٨ في كل دقيقة وفي كل لحظة...

وما إن دقت الساعة الخامسة من مساء يوم ١٥ تموز حتى فصل المعتقلون العسكريون عنا ونقلوا إلى معتقل الدبابات في معسكر الرشيد وبقينا نحن في معسكر الوشاش...

انتهى حديث المرحوم بهجت العطية.





زيارة جلالة الملك فيصل الثاني للقنصلية العراقية في الاسكندرية ـ مصر

الجالسون من اليمين: شرمين روضة (بنت خالة عدنان تحسين العسكري) وجلالة الملك فيصل الثاني ملك العراق وتحسين بك العسكري (الوزير المفوض) وسمو الأمير رعد بن زيد (ابن عم الملك فيصل الثاني) الواقفون من اليمين: السيدة نظمية برتو (زوجة تحسين العسكري) والعميد عدنان تحسين العسكري وناهض تحسين العسكري

ـ ١٣ ـ

الكراسي تنتزع العقائد

أعادونا ذات يوم من أيام تشرين الثاني ١٩٥٨ إلى سجن الأحداث المؤلف من ثلاث قاعات كبرى حقيرة المنظر والمدخل، فكان من نصيبي الغرفة رقم (٢)، وكان يتصدرها العقيد الركن ياسين محمد رؤوف، أول عسكري اعتقله العقيد عبد السلام عارف فجر يوم ١٤ تموز لعدم موافقته على القيام بالانقلاب.. وكان إلى جانبه السيد كنعان العسكري مدير عام الخطوط الجوية العراقية، والسيد عطا عبد الوهاب سكرتير ولي العهد السابق الأمير عبد الإله، وعدنان القاضي مدير مكتب أنباء العالم العربي السابق في بيروت، وسامي فتاح وزير الداخلية الأسبق وغيرهم...

أما الغرفة رقم (١) فكان قد حشر فيها السادة الآتية أسماءهم مع حفظ الألقاب:

بهجت العطية، مدير الأمن العام، أمير اللواء عبيد المضايفي، النائب عبد الرزاق العلي السليمان شيخ عشائر الدليم، النائب غازي العلي الكريم من وجهاء سامراء، خليل إبراهيم الأمين العام لوزارة «الاتحاد العربي»، أحمد مختار بابان رئيس الوزارة العراقية الأسبق، عبد الوهاب مرجان رئيس الوزارة العراقية الأسبق، رفيق توفيق مدير أمن بغداد، عبد الجبار فهمي متصرف بغداد، عادل عوني صاحب جريدة

الحوادث البغدادية، عبد الرحمن السامرائي مدير مكافحة الجرائم بمديرية الشرطة العامة.

وكانت الغرفة الثالثة تسمى «قاووش الباشوات» لأن جلّ الذين وضعوا فيها «باشوات» سابقون من قادة الجيش العراقي وهم: الفريق رفيق عارف، أمير اللواء الركن غازي الداغستاني، أمير اللواء الركن عباس علي غالب مدير الشرطة العامة، أمير اللواء الركن عمر علي قائد الفرقة الأولى في لواء الديوانية، أمير اللواء الركن المهندس خليل جميل، أمير اللواء أنيس وزير. وكان معهم من غير الباشوات السادة خليل كنة، والضابط الطيار فؤاد علي.

وما إن اكتمل عقدنا على هذا النحو في السجن حتى دخل علينا الرئيس أنور الحديثي ومن ورائه طائفة من الجنود يحملون كراسي كبيرة للجلوس، فوزع خمس كراس على كل غرفة، وهذه أول مرة يسمح لنا فيها بالجلوس على الكراسي!.

جلست على كرسي منها وأنا أردد القول المأثور:

نحن بنو العباس نجلس على الكراسي

فتقدم السيد أحمد مختار بابان من الكرسي الآخر وجلس عليه، ثم قال: ما أحلىٰ الجلوس على الكراسي!.

فقال له الدكتور فاضل الجمالي: يا أستاذ إن الكراسي تنتزع العقائد.

ولولا ذلك لما وصلنا إلى هذه الحالة المزرية...

وكان يفصل بيننا وبين سجن بغداد الرئيسي جدار يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار. ولا أدري كيف علم المسجونون بأسمائنا، إذ ما كدنا نجلس لتناول الشاي على رصيف الفناء الخارجي لسجننا، حتى انهالت

علينا من وراء جدار سجن بغداد طائفة من الأحذية القديمة، وكميات كبيرة من القاذورات، تبعها سيل من الحجارة، استمر قذفها علينا زهاء نصف ساعة بدون انقطاع. وأخذ السجناء يركزون شتائمهم على سامي فتاح وسعيد قزاز وعبد الجبار فهمي وبهجة العطية، وأخذوا يهتفون بسقوطنا نحن الخونة... المجرمين... المتآمرين... أذناب العهد البائد... مطايا الاستعمار... إلى ما هنالك من أوصاف ونعوت مترادفة لا نهاية لها...

أولئك السجناء هم طائفة من القتلة والمجرمين واللصوص وقطاع الطرق، ومع علمهم بأنهم من المجرمين الذين أدانتهم المحاكم وحكمت عليهم بالسجن، فهم يرون في رجال العهد الملكي أناساً يفوقونهم في الجريمة.

هكذا علموهم، أو لقنوهم بأنهم ـ وهم المجرمون فعلاً ـ أكثر شرفاً من المعتقلين السياسيين.

لقد شكوناهم غير مرة إلى إدارة السجن، ولكن الرئيس عبد الستار سبع رد علينا قائلاً: إن المساجين مرتبطون بإدارة مدنية، ونحن لا نستطيع التدخل في شؤون تلك الإدارة.

قلنا: إنكم مسؤولون عن حمايتنا وسلامتنا، فاحفظوا لنا كرامتنا على الأقل.

قال: إن رمي هذه الأحجار والأقذار عليكم لا يهدد سلامتكم، ولا يمس كرامتكم، فما عليكم إلا مقابلتهم بالمثل ورمي هذه الأقذار عليهم (وأخذ حذاء قديماً وقذفه بيده من فوق جدار السجن).

وبعد أن افتتح الرئيس سبع معركة الأحذية، توليت قيادة الرمي، بصورة محكمة وسريعة، لأنني كنت أسمع أصوات الألم تتعالى من أفواه

المساجين الذين كانت الأحذية والحجارة تتساقط على رؤوسهم وأجسامهم، إذ لم يكونوا قد فكروا بأننا سنقابلهم بالمثل، وبهذه الصورة المدهشة من العناد والتصميم. . .

ومنذ قيامنا بهذه الحملة الشعواء عقد السجناء معنا «هدنة» إلى أن بلغهم نبأ إطلاق سراح سامي فتاح وعبد الوهاب مرجان بسند كفالة، فودعوهما بسيل عرم من المسبات والشتائم مشفوعة بالأحذية العتيقة والقاذورات.

كانت أخبارنا تتسرب إلى سجن بغداد قبل أن نعلم بها نحن، فأنباء نقلنا والمحاكمات والاعتقال وإطلاق السراح بكفالة، أو الإفراج بدون كفالة، كانوا يعلمون بها قبل أن تبلغنا إياها إدارة السجن. ولعمري هذا سر بقي أمره خافياً علينا حتى كتابة هذه السطور.

جرت في شهر كانون الأول ١٩٥٨ تغييرات عديدة في السجن، فلقد استبدلت إدارة السجن بضباط جدد بعد أن نقل الرؤساء أنور الحديثي وعبد الستار سبع وسامي الموصلي إلى وحداتهم في الجيش. وقد استغربنا تعيين ضابط صغير برتبة رئيس مديراً لسجننا هو الرئيس عبد الرزاق سعيد، وهو ضابط قصير القامة، أبي الوجه، ولكن أعماله التي قام بها معنا فيما بعد كانت أسود من الزفت والقطران، فلقد تبين أنه من غلاة الشيوعيين المحدثين، وكان متزوجاً من امرأة شيوعية تدعى «حياة النهر».

كان الرئيس عبد الرزاق سعيد يعتز بشاربه الكثيف الذي أرخى طرفيه، فتدليا إلى أسفل شفته العليا من الجانبين على طريقة «هوشي منه» زعيم الهند الصينية الشيوعية!.

وكانت «حياة النهر» زوجته، تزورنا في كل ليلة تقريباً. ولكنها

أخذت تؤجل وقت الزيارة إلى ما بعد منتصف الليل زيادة منها في تحطيم أعصابنا، لكيلا نتذوق طعم الراحة في النوم.

وبعد أن استمرت هذه الزيارات الليلية المزعجة زهاء أسبوعين، صارت تزورنا وهي محاطة بضباط صغار كانوا يجلسون في غرفتنا. وكلما حاول أحدنا النوم، تأخذ كأساً من الماء وتصب محتوياته علينا فيطير نومنا، ونجلس لمراقبة هؤلاء المناحيس الذين نغصوا راحتنا وأقلقونا قلقاً مزرياً.

وقد منع مدير السجن الجديد أصدقاءنا وذوينا من مقابلتنا، ومنع تزويدنا بالطعام من منازلنا، وأمرنا بالاكتفاء بالطعام الذي يقدمه لنا متعهد السجن، فتقبلنا الوضع الجديد بصبر وطول أناة، إذ ليس لدينا أي مجال لإسماع صوتنا إلى خارج السجن إلا بطريق المدير. ولكن جناب المدير كان قد سد علينا منافذ الاتصال والتفكير معاً. وما إن لاحظ تذمرنا حتى راح يعد العدة لبسطنا على الطريقة العراقية، والبسط العراقي معناه «الضرب...».

وذات ليلة، ونحن نستعد للنوم فتحت أبواب معتقلنا الخارجي، ودخل زهاء عشرة شباب بالملابس المدنية، تتقدمهم «حياة النهر»، وهي تمسك بيدها عصا خيزران طويلة، وأخذت تنادي بهجت العطية وعبد الجبار أيوب وسعيد قزاز، وتأمرهم بالغناء، فتضربهم بعصاها الطويلة ضرباً مبرحاً. وقد سقط المرحوم بهجت العطية من شدة الألم مغشيًّا عليه.

وفي صباح اليوم التالي تظاهرت بالمرض، وصرت أبكي وأولول من شدة المرض، والمعتقلون يصيحون طالبين طبيباً. غير أن الرئيس عبد الرزاق رفض استقدام طبيب. وقد حملت الضجة التي قمنا بها مدير سجن بغداد المدني على إبلاغ وزارة الدفاع بأن ثورة داخلية قد نشبت في المعتقل السياسي.

وبدلاً من أن يأتي طبيب إلينا، أرسلت وزارة الدفاع قوة من الانضباط العسكري للتحقيق في سبب هذه الضجة. وما إن وصلت الفرقة إلى المعتقل حتى وجدت أن الجنود الحراس كانوا قد اعتقلوا ضابطهم الشيوعي الرئيس عبد الرزاق، وكان قد تشاجر مع جنوده تلك الليلة، لما استنكروا سوء معاملته لنا، فانهال عليهم بالشتائم والضرب. وحاول أحد الجنود حماية نفسه من غضب الضابط، فأمسك بصورة الزعيم عبد الكريم قاسم ووضعها حاجزاً بينه وبين الضابط الهائج، ولكن الضابط انتزعها من يده، ومزقها إرباً إرباً، الأمر الذي أثار حفيظة الجنود فاعتقلوه بعد أن أشبعوه بدورهم بما يستحقه من ضرب... وبسط عراقي صميم.

ولما دخلت علينا القوة العسكرية، سألني رئيسها عن سبب ثورتنا فقلنا له: إن مدير السجن الشهم النبيل قد جعلنا نغني على وقع السياط.



ـ ١٤ ـ

تقليد خطب هتلر أنقذني

وبلغت مسامع الزعيم عبد الكريم قاسم قصة الملازم مدير السجن، فأمر باعتقاله في الحال وطلب معاملتنا معاملة إنسانية محترمة، فعينوا لنا ملازماً جديداً، اسمه ضياء، من خيرة الشباب العرب القوميين. كان رجلاً مهذباً، أعاد إلينا الشيء الكثير من الثقة بالنفس، وجعل المرح يجد طريقه إلى نفوسنا تدريجياً. . .

أدخل الملازم الأول ضياء تحسينات كثيرة على السجن، ووضع جهاز إذاعة في مكتبه نتمكن بواسطته من سماع نشرات الأخبار والقصائد والخطب التي تلقى من إذاعة الجمهورية العراقية ببغداد، بعد أن أصبحت الإذاعة بإدارة المدعو كاظم السماوي من أعضاء الحزب الشيوعي القديم الذي لم تسمح له وزارة الداخلية بممارسة العمل الحزبي.

وفيما كان الشاعر محمد مهدي الجواهري الذي عاد شيوعياً بعد يوم ١٤ تموز، يلقي قصيدة من دار الإذاعة، رحت أقلد إلقاءه، بنفس لهجته الفارسية وصوته الأجش. وكان ضباط السجن الجدد يسترقون السمع من فوق سطح سجننا، فأعجبوا كثيراً بالتقليد المتقن، ولما انتهيت من الإلقاء صفقوا إعجاباً، وطلبوا مني أن أقوم بتقليد هتلر وموسوليني وتشرشل وديغول وخروشوف في خطبهم. . .

وقد أثار دهشتهم تقليدي خطاب هتلر، وبقوا يتناقلون أنباء خطبي بوزارة الدفاع إلى أن وصل الخبر إلى الزعيم عبد الكريم قاسم نفسه، فطلب إلى أحد الضباط أخذ آلة تسجيل معه سراً ليسجل عليه صوتي، وأنا أقلد عبد الكريم قاسم وهو يخطب.

وقام الضابط بالتسجيل بدون أن أعلم. وقد سمعت بعد أن أطلق سراحي بأن الزعيم عبد الكريم قاسم قد أعجب كل الإعجاب بتقليدي خطبه بالذات، ولكنه اغتبط كثيراً بتقليدي خطب هتلر.

وكان من نتائج هذه الغبطة أنه تذكرني، فأمر باستقدامي في اليوم التالي مع الزميل عادل عوني صاحب جريدة الحوادث البغدادية، إلى مقره بوزارة الدفاع، وكان ذلك في صباح يوم ٧ شباط ١٩٥٩، وهناك استقبلنا الزعيم عبد الكريم قاسم مدة نصف ساعة. وأبلغنا أنه أصدر أمره بإطلاق سراحنا فوراً.

بعد أن أمر الزعيم عبد الكريم قاسم بإطلاق سراحنا على الفور في مكتبه بوزارة الدفاع، قادنا العقيد وصفي طاهر كبير مرافقي رئيس الوزراء، والذي أطلقت عليه جريدة «الرأي العام» التي يصدرها الشاعر محمد مهدي الجواهري لقب «الحارس الأمين»، إلى مكتب العقيد سعدون، كي يبلغ مدير السجن وآمر موقع بغداد، بأننا قد أصبحنا أحراراً.

انتظرنا زهاء ثلاث ساعات ونحن وقوف على أرجلنا، دون أن يسمح لنا بالجلوس. ومر وقت الغداء ولم نذق لقمة خبز. وكثيراً ما طلبنا إلى الحجاب أن يأتونا بكأس من الماء نطفىء بها حرارة ظمئنا، ولكن دون طائل.

وكان الضباط والجنود يلتهمون اللحوم المشوية والكفتة المحاطة

بالبندورة والبصل الأخضر والكبيس من الخيار والقثاء، كل ذلك أمام أعيننا، وهم ينظرون إلينا وكأننا تماثيل برونزية لا نحس ولا نشعر بشيء.

وبحركة لولبية مفاجئة، لم أشعر إلا وأنا أتقدم من منسف الضباط، وأمد يدي لتناول رغيفين من الخبز الأبيض الذي امتازت أفران بغداد بصنعه، ووضعت على كل رغيف ما تيسر من اللحم والكفتة واستدرت إلى حيث يقف زميلي وناولته الرغيف الثاني. . .

تمت هذه العملية في لحظات سريعة أذهلت الضباط والجنود، فقال أحد العقداء من السادة الآكلين: أما وقاحة ما بعدها وقاحة! كيف تتجرأ أيها الخائن المجرم على الهجوم على مائدتنا بدون استئذان؟.

قلت: اسحب كلامك يا سيادة العقيد، فنحن لم نعد خونة ولا مجرمين. . . بل نحن مواطنون صالحون، وسنكون قريباً مناضلين شرفاء مثلكم، وسنساهم حتماً في تفسير فحوى الثورة. . . ونعمل على تنفيذ «محتواها».

فقال العقيد: ما هذا الهراء! ألستم معتقلين؟

قلت: كلا، لقد كنا معتقلين.

فتدخل العقيد سعدون وقال: لقد أمر الزعيم بإطلاق سراحهما على الفور.

وتنحنح العقيد الثاني الذي شتمنا وقال: إذن نضعهما تحت المراقبة إلى أجل غير مسمى، فيبقى عادل عوني في بيته. . . ويبقى يونس بحري الوقح في فندق «كراند» المطل على شارع أبي نؤاس، على ألا يفارقا البيت والفندق قطعاً حتى إشعار آخر.

قلت: يا سيادة العقيد أعيدونا إلى السجن فذلك خير وأولى. .

قال: وهذا ليس كل ما في الأمر... بل عليكما أن تقدما كفيلاً لكل واحد منكما بمبلغ قدره ثلاثة آلاف دينار... مفهوم؟

قلت: كثر الله خيرك يا سيادة العقيد...

ـ ١٥ ـ

الإقامة الجبرية

أعادنا رئيس الانضباط سعيد مطر بسيارته الجيب إلى سجن بغداد لنأخذ منه ملابسنا وأمتعتنا. وفي مكتب مدير السجن كان في انتظارنا السادة رشيد مطلك المدير العام للسياحة والاصطياف، وشاكر محمود مدير شركة البيرة الأهلية وابن أخي الأكبر المقدم محمد زكي صادق الجبوري.

وبعد انتهاء الإجراءات الرسمية، انتقلنا في سيارة رشيد مطلك إلى مركز شرطة بغداد حيث توجد دائرة الشعبة الخامسة لأخذ الكفالة منا.

كان المفوض هاشم أيوب (أبو ليلى) مدير الشعبة الخاصة من خيرة الرجال الطيبين، واهتم بأمري اهتماماً خاصاً لما رأى أن ابن أخي الذي ربيته وأدخلته المدرسة الحربية يرفض أن يكفلني بحجة أنني قد أهرب من العراق.

وبقيت جالساً في مكتب أبو ليلى وأنا أفكر في هذه المحنة التي ورطني سوء الطالع فيها، فما كدت أخلص من السجن حتى دبر لي ذلك العقيد اللئيم هذه المصيبة، مصيبة الكفالة.

وراح المفوض هاشم يبحث لي عن كفيل وبعد عدة مخابرات هاتفية مع أصدقائه، انفجر ضاحكاً لما سمع أحدهم يقول له: إنني أقبل أن أكفل يونس بكل سرور...

ولم يشأ المفوض أبو ليلى أن يخبرني من هو هذا الكفيل الجريء، وكم كانت المفاجأة سارة ومبهجة لما رأيت الصديق القديم صلحي الطرابلسي يدخل علينا بعد قليل ويشبعنا قبلاً وتهاني طويلة. ولما وقفنا أمام المحقق العدلي لتوقيع الكفالة، قال المحقق لصلحي: إن كفالتك غير مقبولة، لأنك أنت الآخر مكفول بعد خروجك من السجن.

لم يفقد صلحي أعصابه، وبعد تفكير قصير خاطب صديقاً له، يدعى السيد صباح محمد شكري، المعروف بلقب «البومبيلي» فرضي بأن يكفلني دون إبطاء...

وما إن دقت الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى كنا قد وصلنا إلى فندق «كراند» لأبدأ فيه حياة سجن جديدة، فالإقامة الإجبارية في الفندق معناها ألا أغادر الفندق بتاتاً، وألا أضع رجلي في الشارع. وعلى كل حال فإن الإقامة في فندق نظيف جميل تطل شرفاته الواسعة على نهر دجلة، وهي أطيب بكثير من ذلك المعتقل القذر اللعين.

ومرت الليلة الأولى من حريتي «المقيدة» بسلام وهناء، بيد أنني لم أنم ولم يغمض لي جفن لحظة واحدة، فلقد فقدت عادة النوم وحدي في غرفة واحدة بحمام.

وفي الصباح الباكر، كانت قاعة الطعام تعج بالنزلاء أمثالي من المحكوم عليهم بالإقامة الإجبارية، وفي طليعتهم الشيوخ موجد الشعلان، علي الشعلان من شيوخ قبائل الديوانية، وعبد الرزاق علي السليمان شيخ مشائخ عشائر الدليم، فرحان الفيصل، وسعود الفيصل آل الياور من شيوخ شمر، ومحمد عبد المنعم الرشيد كبير شيوخ الجنابيين، وزيدان الحاج صكب من شيوخ قبائل الديوانية...

وفي وسط هذا الجيش من الشيوخ ورجالهم وخدمهم وحشمهم

عشت زهاء ثلاثة أشهر دون أن تطأ قدمي أرض الشارع. وماذا يهمني الشارع ورجاله الذين تحكموا في رقاب العباد، وراحوا يفرضون على التجار وأصحاب الحوانيت والمقاهي «الجزية والإتاوات» باعتبار أن جلهم قد صاروا من الهتافين والمصفقين لرجال المقاومة الشعبية، وهذه المنظومة الشيوعية، شبه العسكرية صارت بضباطها وقادتها تابعة للحزب الشيوعي العراقي، وتسلم العقيد مصطفى البامرني رئيس الحرس الملكي السابق قيادة المقاومة الشعبية فبرهن بدوره على إخلاص تام للمبادىء الجديدة التي اعتنقتها منظمته!.

والحياة مع شيوخ العشائر ليست من الأمور المعتادة الهينة، وخاصة بعد أن تعودنا على الحياة الرتيبة التي تسير على وتيرة واحدة مزعجة مهلكة. فمعاشرة الشيوخ تتطلب الحذر والدقة في الانتباه لكيلا تفلت منك كلمة نابية تخدش السمع مثلاً، أو أن تتناول معهم الطعام فتلتهم اللحم المحمر بيدك اليسرى. فهذا عيب وأي عيب!.

وقد ارتكبت هذا العيب في المرة الأولى التي دعيت فيها إلى خوان مدت فيه المناسف التي تعلوها الخراف المحشوة بالرز المفلفل واللوز والزبيب، فأقبلت بكليتي على هذا الأكل النفيس، فانتقمت لنفسي من طعام سجون بغداد الذي كان زقوماً، ورحت أقطع اللحم باليد اليمنى، وأزدرد الرز وما إليه باليسرى.

وعندما لم يتمالك الشيخ فرحان الفيصل من أن ينتهرني بشدة، فلقد كان رحمه الله من أكثر الشيوخ تمسكاً بتقاليد القبائل و «أتيكيت» الموائد العربية.

نفدت الدراهم التي كانت لديّ، وأصبحت غير قادر على شراء علبة سكائر، وكان علي أن أدفع أجرة الفندق وقدرها دينار واحد في كل يوم.

أما الطعام فكنت أتناوله مع الشيوخ الأكارم في الأوقات المعينة

بنظام تام، في الصباح الباكر الشاي مع الزبدة و «الكيمر»، وهو من فصيلة القشطة، ولكنه أكثر جفافاً، ويستخرج من لبن الجاموس. وعند صلاة الظهر يصار إلى تناول طعام الغداء، وهو مكوّن من أصناف عديدة يؤتى بها من منازل الشيوخ وهكذا في المساء بعد صلاة المغرب. . .

وفي أغلب الأمسيات يوصي لنا الشيخ علي الشعلان على السمك «المسكوف» وهو يشوى على سعف النخل المجفف، يشويه السماك على شاطىء نهر دجلة أمام المارة على الرصيف.

وما إن تغيب الشمس حتى ترى شاطىء دجلة الممتد زهاء (٣) كيلومترات أمام عشرات الفنادق والكازينوهات يضيء، حتى يخيل إليك أن الشاطىء يحترق لكثرة السماكة الذين يشوون السمك «المسكوف»!.

ولا يكتفي الشيخ علي الشعلان بالسمك المسكوف وحده، إذ إن لهذا النوع من السمك اللذيذ متطلبات أخرى لا يعرفها إلا كل من كان عريقاً في ملازمة مدينة بغداد.

وبعد الأكل نقبل على طرح مختلف المواضيع على أبسطة البحث. لقد وعدنا الشعبة الخاصة بعدم الخوض في الشؤون السياسية، لذلك كانت المواضيع التي كنا نتداول فيها بصدد الشؤون السياسية المحلية. . . أما السياسة الخارجية فلقد تركناها للموظفين الرسميين الذين كانوا يمثلون العهد في الخارج!.

وكنت كلما احتجت إلى مال، لشراء أمواس حلاقة أو صابون، أو كتب، أقول لهم، أي للشيوخ إنني أجيد طبخ الأكلة الفلانية، فيعطى لي المال اللازم لهذه الأكلة بسخاء يوازي ثلاثة أضعاف ثمنها، فأوفر الضعفين على طريقة «القرش الأبيض لليوم الأسود». . .

وعندما يحتاج الشيوخ إلى حلاق، أقوم لهم بدور الحلاق الذي

يجيد طقطقة المقص، وتهذيب الشعر، وتقليم الأظافر، وهندمة الشوارب بخفة وبراعة أغبط عليهما!.

كان مدير الشعبة الخاصة المفوض هاشم أيوب يزورني في أغلب الليالي، وفي كل مرة يزورني فيها كان يصطحب أسباب الترفيه والتسلية. وكان ملازمي الصديق السيد صلحي الطرابلسي يرتب المائدة بذوقه المعروف وصبره «الأيوبي» على نكاتنا، وتندرنا به وبمواهبه التي لم تعرفها الحكومات العراقية المتعاقبة على دست الحكم أي انتباه أو اهتمام.

وذات مساء خاطبني المفوض هاشم أيوب تلفونياً، وقال لي: تفضل إلى مكتبي.

وكنا قد اتفقنا منذ الأيام الأولى التي مرت على تمتعي بالحرية «المقيدة» على أن يستدعيني إلى مكتبه، كلما أراد أن أشم الهواء، أو أضيق ذرعاً بالفندق، فيرسل لي سيارة رسمية يقودها شرطي مسلح، وهكذا أقضي ساعتين أو ثلاث ساعات في المدينة متنقلاً هنا وهناك...

ودخلت مكتب الشعبة الخاصة، فقال لي أبو ليلى: إنهم يريدون منك أن تتولى إدارة الإذاعة، وإصدار جريدة يومية.

قلت: لقد أقسمت يميناً مغلظة بعدم الاشتغال بالسياسة بعد الآن.

قال: هذا أمر عال.

قلت: أعيدوني إلى السجن، فالسجن أحب إليَّ من هذا.

قال: إن تحت تصرفك أي مبلغ تريد.

قلت: إنني أرفض أموال قارون برمتها، فلقد كفاني ما تحملت من المصائب بسبب السياسة...

ـ ١٦ ـ

ابني يشي بي!

وفي صباح ١ أيار ١٩٥٩ فوجىء الشيوخ في الفندق بزيارة وزير الداخلية الزعيم الركن أحمد محمد يحيى، فراح كل واحد منهم يرتب غرفته لاعتقادهم بأنه قد جاء لزيارتهم، ولكن مدير الفندق بطرس، أشار إليَّ بأن أتبعه، وعندما دخلت مكتب المدير كان وزير الداخلية يبتسم لي، فحياني مصافحاً ثم خاطبني بلهجة موصلية عريقة قائلاً:

ـ جئت أبشرك بأن الزعيم قد أمر بإلغاء الإقامة الإجبارية عليك، ولكن يجب أن تذهب إلى مركز الشرطة في «البتاويين» لتوقيع اسمك، وتثبت وجودك مرتين في كل يوم، وأنت حر في اختيار الوقت.

ثم أردف قائلاً: إن في استطاعتك العمل بعد الآن.

قلت: ماذا أعمل؟

قال: نحن غير مسؤولين بعد أن رفضت العمل السياسي معنا.

قلت: أنا لم أرفض العمل معكم، ولكنني أرفض الاشتغال بالسياسة.

وقمت بالإجراءات اللازمة. وكان رجال الشرطة يتهيبون التحدث معي عندما أحضر صباحاً ومساء للتوقيع على دفتر «الوقائع اليومية» ولكنهم لما شاهدوا مديرهم يرحب بي، ويقدم لي القهوة والشاي ويشتكي لي من تصرفات المقاومة الشعبية التي أساءت إلى الشعب وإلى

الأمن إساءات بالغة رعناء، اطمأنوا إليَّ، وراح كل واحد منهم يسرّ إلي بالإهانات التي يتلقونها من شباب المقاومة الشعبية وشاباتها، ويصف المظالم التي يوقعها هؤلاء، بأبناء الشعب العزل، وكيف أنهم يفتشون السيارات، وينتهكون حرمة البيوت، ويعطلون حركة البيع والشراء والسير، لمجرد التلهي والتلذذ بأذى من يخالفهم في العقيدة التي لا يؤمنون بها هم قبل غيرهم..

وكنت ذات يوم أتفرج على واجهة مكتبة شيوعية بشارع الرشيد، وقد غصت الواجهة بالكتب الحمراء فقرأت العناوين التالية: «انحراف تروتسكي» و «ثورة أكتوبر» و «مبادىء لينين» و «وطن حر وشعب سعيد» وكانت لحية لينين المدببة. وشارب ستالين المعقوف أبرز ما في الواجهة. وفيما أنا أهم بالانصراف تقدم إليَّ انضباط عسكري وقال: هل أنت يونس بحري؟.

قلت نعم.

فأشار إلى سيارة جيب عسكرية فصعدت، وانطلقت بنا تخترق الجموع الحاشدة إلى وزارة الدفاع. وفي هذه المرة أيضاً وقفت أمام لجنة التحقيق وجهاً لوجه فقلت: خير إن شاء الله!.

قال الرئيس وهو يقدم إليَّ رسالة مكتوبة بخط مرتجف باهت: أتعرف خط من هذا؟.

وأمعنت النظر في الخط، ولم احتج إلى كبير عناء لمعرفة صاحب الرسالة، وأنا الخبير بمختلف الأساليب في الخط لطول المران، قلت: هذا خط ابني الثاني سعد.

قال: ألا تريد قراءتها؟

وبعد أن أشار إليَّ بالجلوس وضع الرسالة أمامي فقرأت ما نصه:

سيادة الحاكم العسكري العام.

باسم «المقاومة الشعبية» أحتج على إطلاق سراح والدي يونس بحري، فهذا الرجل كان جاسوساً لبريطانيا في برلين، ثم لما انتقل إلى باريس صار جاسوساً للفرنسيين، إن والدي مزواج ومقامر وعربيد، وهو يستحق السجن إلى الأبد... أو الموت.

ضحكت بعد تلاوة هذه الرسالة، وشر البلية ما يضحك فقال الرئيس وهو يحاول إخفاء ابتسامة عريضة على شفتيه: ما هو رأيك؟

قلت: هل إن ولدي سعد هو شاهد عيان أم مخبر؟

قال: مخبر!

قلت: إن ولدي هذا قد ولد بعد ذهابي إلى ألمانيا بستة أشهر، فهل يعقل أن يكون شاهداً عليَّ؟

قال: لا...

قلت: إنني متألم جداً يا سيادة الرئيس.

قال: علام؟

قلت على ولدي الذي صار شيوعياً يتكلم باسم المقاومة الشعبية، ويبلغ به الكفر حد الوشاية بأبيه.

قال الرئيس متأثراً: العزاء مشترك يا أستاذ، فإن ولدي أنا الآخر قد صار مثل ولدك، والعياذ بالله.

ونادى الرئيس على الانضباط وقال له: أوصلوا الأستاذ إلى فندقه...

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

فإذا كان الابن يشي بالوالد وهو في أتعس محنة مر بها في حياته، فما الذي يرجوه الإنسان من صديق أنس، لا صديق ضراء وسراء؟

لم أتألم من الوشاية التي وجهها إليَّ هذا الولد فهو عمل غير صالح، بقدر ما تألمت من وشاية قام بها صديق كنت أعتقد أنه آخر من يقوم بدور «بروتوس» معي.

بقيت في بغداد سنة ونصف السنة بعد إطلاق سراحي من السجن، وأنا أخدم هذا الصديق وأساعده، وأقتر على نفسي لأرفِّه عليه...

كنت أسائل نفسي وأنا في السجن: من ذا عساه يكون الرجل الذي دل على مكان وجودي يوم ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، إذ لو كنت قد بقيت خمسة أعوام في ذلك المكان لما دار في خلد أحد أن أكون هناك.

وبعد أن عدت إلى بيروت سالماً من محن بغداد وكوارثها، رحت أردد على نفسي ذلك السؤال الذي ضاق بالجواب عليه صدري: ترى من هو ذلك الرجل؟

وقبل أيام فقط استوقفني طيار عراقي في ساحة البرج ببيروت وجعل يحدثني عن أصدقائي ببغداد ومن جملتهم الصديق صلحي الطرابلسي، فجعلت أثني عليه وأدعو له بالنجاح والتوفيق، فدهش، وقال: كيف تثني على هذا الرجل، وهو الذي دلنا على مكان وجودك يوم ١٤ تموز؟

وأردف قائلاً: لقد كنت أحد الضباط الموفدين للبحث عنك، فقصدنا فندق «ريجنت بالاس»، فقال لنا صاحب الفندق إن صلحي الطرابلسي يعرف المكان الذي توجد فيه. وبمجرد سؤالنا الطرابلسي تلفونياً أجاب بأنك في بيت العقيد وحيد. وكان هذا كافياً لإلقاء القبض عليك...



- ١٧ -

كشك البحري

كانت لدى شركة كوكاكولا ببغداد أكشاك صغيرة توزعها بأثمان زهيدة على الباعة الذين يوزعون مشروباتها على المارة في شوارع بغداد، ففكرت وأنا عاطل عن العمل باقتناء كشك من هذه الأشكاك، ونصبه في مكان محترم على مدخل فندق بغداد الفخم...

وهكذا كان وأخذت إجازة بالعمل من أمانة العاصمة حيث ساعدني مدير التنظيم فيها، وبعد مضي ٤٨ ساعة افتتحت العمل في الكشك بعد أن جهزته بالماء والكهرباء مجاناً!.

وتبرع لي مدير توزيع اليانصيب الوطني بمطبخ كهربائي، واشتريت قطعة نحاس لشواء لحم «هامبورغر» و «هوت دوغز» أي الكفتة والمقانق.

وما إن علم الناس في بغداد بنبأ افتتاحي هذا المطعم الصغير حتى أخذوا يتوافدون عليّ، وكثر الإقبال على تناول هذا النوع الجديد من «الساندويتش» المؤلف من طعام ألماني وأميركي، فالهامبورغر أكلة ألمانية، و «الهوت دوغز» أكلة أميركية.

وصرت أوزع كميات كبيرة من المشروبات المبردة، **والبيرة كذلك وبدون إجازة، ذلك لأن الغريق لا يخشى من البلل**، وكان أصحاب المطاعم الكائنة في القطاع الذي افتتحت عملي الجديد فيه يسخرون مني

في أول الأمر، ولكنهم لما رأوا هذا الإقبال على مطعمي الصغير، أخذوا يحضرون بأنفسهم لمشاهدة الطريقة التي أعمل بها، فهم لا يبيعون أكثر من مئة قطعة سندويش في الليلة الواحدة، أما أنا فصرت أبيع ٥٠٠ و ٦٠٠ قطعة في كل ليلة... ومعنى هذا أنني كنت أربح زهاء ثلاثين ديناراً يومياً، ناهيك عن الأرباح الأخرى الحاصلة من بيع المشروبات المثلجة والبيرة.

وانتقلت أنباء مطعمي إلى وزارة الدفاع وإلى الوزارات الأخرى، وحصلت على جهاز للتلفون ورقم خاص ووضعت موائد وكراسي حول الكشك، وكان يقع تحت شجرة وارفة الظل وعلى رصيف يبلغ عرضه ٢٥ متراً...

وكان الوزراء وقادة الجيش يقفون بسياراتهم الفخمة بقرب الكشك للتحدث إليَّ أولاً، ولتذوق هذه الأصناف اللذيذة من السندويش الذي لم تعرفه بغداد من قبل.

وذات ليلة، وقفت سيارة وزير ونزل منها وزير الاقتصاد الوطني السيد حسن الطلباني، وهو من أعز أصدقائي القدامى، فاقترب مني وهو يمشي متثاقلاً وهمس في أذني قائلاً: ما هذا الذي تفعله يا يونس؟.

قلت: إن البلد الذي صرت أنت فيه وزيراً.. لا يستحق من هو مثلي إلا أن يكون صاحب مطعم.

وبعد أن اشترى ١٠ سندويشات، وضع ١٠ دنانير على الصندوق وانصرف وهو يبتسم.

صار مطعمي «كشك بحري» ملتقى أرباب الصحف والمحررين والشعراء والأدباء عامة، والقوميين العرب الذين لم تقبلهم نقابة الصحافة

التي صبغها نقيبها الجديد الشاعر محمد مهدي الجواهري بصبغة حمراء قانية. . .

وبحكم الواقع لم يكن مطعمي يستطيع التمييز بين رواده. فيمنع الزبائن لمجرد انتسابهم إلى حزب لونه كذا وعقيدته كيت. . . لقد هربت من السياسة ورفضت العمل فيها ومعها، فلا يهمني من هو زبوني، ما دام هذا الزبون قادراً على الدفع.

هذا منطقي أنا على الأقل. ولكن منطق الشاعر محمد مهدي الجواهري صاحب جريدة «الرأي العام» ونقيب الصحافة ببغداد كان بعيداً كل البعد عن هذا المنطق. . . فلقد خاطبني ذات ليلة تلفونياً، وأكد بأن مطعمي قد صار وكراً للمتآمرين والخونة، بالنظر لكثرة من يرتاده من أرباب الصحف والمحررين.

فقلت له: اسمع يا أبا فرات، إن من ذكرتهم جميعاً هم أعضاء في نقابتك، ويحملون بطاقات صحفية عليها توقيعك، وما ذنبي أنا إذا هم فضلوا مطعمي على نادي نقابتك؟

قال: اصرفهم ولا تقبلهم.

قلت: هذا واجبك أنت. امنعهم إذا استطعت، أما أنا فإنني أستقبلهم على الرحب والسعة.

قال: سأشكوك عند الزعيم الليلة. . .

وقطع الحديث ملقياً السماعة بشدة من يده. . .

يشكوني إلى الزعيم؟ الجواهري، هذا الشاعر المفلس، الذي يهيم كل يوم في واد، يستطيع أن يصل إلى مقر الزعيم عبد الكريم قاسم. . . ليشكوني إليه. كنت أردد هذه الكلمات بصوت مسموع وأنا كمحموم يهذي. وكان يقف إلى جانبي الزميل إبراهيم علي سكرتير تحرير جريدة

الزمان البغدادية، فقال لي وهو يحاول أن يهدىء من روعي:

ـ ألا تعلم أن للجواهري اليوم مركزاً ممتازاً عند الزعيم؟ إنه يرافق الزعيم في جولاته كلها فيجلس إلى جانبه في السيارة، وتؤدى له التحية في وزارة الدفاع وفي كل مكان. ويدعي أنه هو دماغ الزعيم وموجهه. ثم إن الجواهري يستطيع أن يشنق من يشاء، وينقذ من الموت من يشاء. إياك أن تلعب معه يا يونس، فإنك تكون كاللاعب بالمتفجرات.

سمعت هذا... ثم سمعت أشياء كثيرة مثيرة عن الجواهري الذي تسميه صحيفة «اتحاد الشعب» لسان الحزب الشيوعي العراقي «شاعر العرب الأكبر». تذكرت كل هذا الآن، وتذكرت الجواهري وهو في أوج عظمته العربية، يوم كان بباريس مفلساً مدقعاً، أدس في جيبه ورقة العشرة آلاف فرنك، وأنا أعتذر إليه، وكأنني أنا الفقير المعدم، وهو الغني الذي يغدق علينا النعم... وكم هو جميل منه أن يتنازل فيأخذ منا دينه الكبير علينا... ويتواضع ليرد علينا بشكر لا نستحقه؟

ورحم الله ياسين الهاشمي عندما قال: شيئان ينتزعان العقائد، الكراسي والمال.



ـ ١٨ ـ

من الكشك إلى الكازينو

وذات مساء زارني الزميل عادل عوني، وبعد أن تناول زهاء عشرين سندويش، داكس، همس في أذني أنه يأسف للحالة المزرية التي وصلت إليها لاشتغالي في كشك صغير كهذا، أطعم الكناسين وسوّاقي السيارات والمتسولين، وأخالط سمار الليل من السكيرين والمعربدين.

قلت: ما العمل، والعين بصيرة واليد قصيرة؟

قال: ابحث صباح الغد عن محل محترم لإنشاء مطعم فيه، وأنا أدبر لك المال اللازم!.

وفي صباح اليوم التالي شمرت عن ساعد الجد ورحت أبحث. وأمام مطعم «لاماركيز» التقيت بالصديق العقيد قاسم الشالجي الذي كان آمر كلية الهندسة العسكرية في الجيش، وأحيل على التقاعد قبل أسبوع من لقائنا، فاستأجر محلاً فخماً تحيط به حديقة غناء في العلوية أمام مطعم «لاماركيز»، وفتح فيه كازينو باسم «كوبانا».

قال لي العقيد المهندس قاسم: لقد أرسلتك العناية الإلهية إليَّ، فأنا أبحث عن مدير لكازينو «كوبانا» الذي انتهيت من إعداده أمس فقط وهوذا . . .

وأشار إلى بناية مستطيلة الشكل بطابق واحد والحديقة تبدو جميلة غنّاء وارفة الظل، فقلت في التوّ واللحظة: موافق.

ووزعت بطاقات الدعوة على الوجوه والوزراء وقادة الجيش والشرطة والأمن وأقطاب الحزب الشيوعي وأرباب الصحف البغدادية التي «تشيعت» ما عدا صحف الحرية والثورة وبغداد، ورؤساء النقابات وعمادة جامعة بغداد. أما قادة الفكر والرأي والسياسة فلم أتجرأ على دعوة أحد منهم، لكيلا أتهم بالسياسة والاشتغال بها.

وكنت قد أعددت مقصفاً فاخراً حشدت عليه من أصناف الأطعمة ما يسيل لعاب أبخل عباد الله: ناسي غورينغ أندونيسي، شأب سوي صيني، بورش روسي، شولولي ياباني، كاري رايز بالدجاج هندي، برده بيلاو فارسي، قالدر قوي تركي، كبة موصلية، كبة حلبية وطرابلسية، كسكس جزائري، كفته جي تونسي، بسطيلة مغربية، كسكي بالعصبان ليبي، كفتة وكباب حاتي مصري، وتوجت المقصف بأوان كبيرة من فتة كوارع شامية بالسمن واللبن والصنوبر، ومن حولها زهاء ١٠٠ رأس نيفة محمرة، ناهيك عن المقبلات والمشهيات اللذيذة والمغرية معاً.

ولما كانت حديقة الكازينو تكفي لاستيعاب أكثر من ألف مدعو جلوساً. فإنني اتخذت الاحتياطات اللازمة لجعل المقصف مربعاً، مستديراً بأضلاعه حول الحديقة ليتناول المدعوون الأفاضل طعام العشاء بيسر وسهولة منعاً للزحام.

واستقبلت المدعوين، وعددهم بموجب البطاقات التي أرسلتها ٦٥٠ مدعوّاً. ولما أحصيت العدد الموجود في صالونات الكازينو كان العدد قد صعد بقدرة قادر إلى ٨٥٠ مدعوّاً، أي بزيادة ٢٠٠ طفيلي تفضلوا علينا بتشريفهم غير المرغوب فيه طبعاً!.

وكان العقيد المهندس المتقاعد قاسم الشالجي، وعمره في ذلك اليوم ٤٢ ربيعاً فقط، عصبي المزاج حاد الطبع. وكان يرجوني ألا أخبر أحداً بأنه صاحب الكازينو، فما إن أبلغته عدد الموجودين حتى فقد

أعصابه، وثارت مراجل غضبه، فهوَّنت عليه الأمر بقولي إن الطعام الموجود على الموائد يكفي ألف وخمسمائة شخص.

فأجابني وهو يزمجر: القضية ليست قضية هل أن الطعام يكفي أم لا يكفي. إن في الأمر لعبة، وأنا أعرف من دبرها يا يونس إن الذي دبرها صاحبي القديم الزعيم عبد الكريم قاسم، وأنا أعرف الناس «بمقالبه» وحركاته، فهو يعلم أنني أنا صاحب الكازينو. لقد أخبرته فضحك حتى استلقى على قفاه، ووعدني بأنه سيحضر حفلة الافتتاح بدون أن يعين الوقت، كعادته في مثل هذه الأحوال.

قلت: لا تهتم بهذا الأمر وسترى كيف أنقذ الموقف على خير ما يرام.

والتفَّ المدعوون حول السقاة في حلقات متعددة، في انتظار وصول الزعيم. وكان موعد حفلة الافتتاح الساعة السابعة والنصف مساء، وها هي ذي عقارب الساعة تشير إلى التاسعة مساء، وهو لم يحضر بعد.

وفيما كان القوم يتساءلون، والهرج والمرج قد ساد الكازينو، سمعنا أبواق المصفحات العسكرية المرافقة لموكب الزعيم تقترب من الكازينو، فخرجت صحبة الوزراء والقادة ورؤساء النقابات إلى مدخل الكازينو الرئيسي لاستقبال رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة...

وبعد أن تم استقباله، دخلنا إلى قاعة الاستقبال للاستراحة قليلاً، وانتظار أعضاء ورئيس مجلس السيادة. وهم جميعاً من أصدقائي الأقدمين وكان من الضروري أن أدعوهم بعد دعوة الزعيم قاسم.

وإن هي إلا لحظات ثم أعلن بوق الدراجة البخاري التي يسوقها

أحد شرطة السير أمام سيارة أعضاء ورئيس مجلس السيادة عن وصولهم إلى الكازينو، ولكن الحاضرين لم يتحركوا، فخرجت وحدي لاستقبالهم.

والظاهر أن الفريق نجيب الربيعي رئيس مجلس السيادة لاحظ ارتباكي بالرغم من الابتسامة التي اصطنعتها، فربت على كتفي وهو يقول: شد حيلك يا يونس!.

ودخل رئيس مجلس السيادة الفريق الركن نجيب الربيعي ومن ورائه أعضاء مجلس السيادة مهدي كبة، ومن ورائهم الداعي، فهب الجميع واقفين، وبعد المصافحة والسؤال عن الصحة والعافية والأحوال، تقدم مني العقيد وصفي طاهر كبير مرافقي رئيس الوزراء وطلب إليَّ أن ألقي كلمة تناسب المقام، وقرص أذني بلطف قائلاً: أنت تعرف شلون.

وتطلعت نحو وجه العقيد المهداوي متسائلاً، فأومأ برأسه مشجعاً وهو يبتسم مسروراً...

وألقيت كلمة ترحيب استوحيتها من كعب الدست. أفلست طباخاً عالميًّا يطعم زهاء ألف شخص دفعة واحدة، وفي وقت واحد؟

وأطربت خطبتي الزعيم، وجعلته يصفق استحساناً وإعجاباً وكان الفريق الركن نجيب الربيعي يصفق بدوره وهو يقهقه ضاحكاً، وبصوت عال يردد: أحسنت يا يونس أحسنت!!.

وفتحت أبواب الحديقة، وأضيئت المصابيح الكهربائية فسطعت الأنوار القوية على الموائد العامرة بما لذّ وطاب من الأطعمة والشراب، ووقف الزعيم قاسم يتطلع إلى ما حوله، والناس يجولون بأعينهم متنقلين من مائدة إلى أخرى، وما عتم رئيس الوزراء أن ناداني بصوت مرتفع: يونس شنو هذا؟

قلت: يا سيادة الزعيم هذه أطعمة دولية.

قال: ومن عني بطبخها؟

قلت: داعيكم.

قال وهو يتقدم نحو فتة الكوارع الشامية وقد أحطتها بالرؤوس النيفة المصرية، وبالفوارغ والقبوات والكروش المحشية: وما هذه الأكلة؟

قلت: «باچة»، ولكنها ليست عراقية، بل سورية مصرية.

فقال: ولك يونس، حتى في الطعام تضع للسياسة حصة.

ومدّ يده إلى خوان الفتة ليأكل، ولكن العقيد وصفي طاهر اعترض سبيله وهو يتمتم: دقيقة يا سيادة الزعيم!.

ثم رفع لقمة ازدردها بسرعة لمعرفة ما إذا كان الطعام مسموماً. وحبكت النكتة في رأسي، فقلت وأنا أرفع بدوري لقمة إلى فمي: أنا المسؤول عن كل فرد يموت من هذا الطعام، ولكنني لست مسؤولاً إذا ما توفي أحدهم من التخمة.

فضحك الزعيم عبد الكريم قاسم، وضحك الجميع.

ودار الضيوف حول الموائد وهم يتذوقون الأصناف بنهم وشغف زائدين، وقد أعجب سفراء الصين واليابان وأندونيسيا والهند وإيران بأكلات بلادهم، وتلقيت تهاني السفراء الروسي والتركي والتونسي والمغربي على إجادة طبخ أطعمتهم الشعبية بمثل هذا الإتقان البديع.

ولما جلس الضيوف لتناول القهوة والمهضمات، ناداني الزعيم، وكان يقف إلى جانبه السيد رشيد مطلك المدير العام للسياحة والاصطياف، والصديق الصدوق لعبد الكريم قاسم، وهو الذي يشرف

عبد الكريم قاسم يصافح رئيس مجلس السيادة الفريق نجيب الربيعي

على الحفلات الرسمية التي تقيمها الحكومة، فأمره بتكليفي بعد الآن بإعداد قوائم الطعام لحفلات الحكومة الدولية.

وهكذا صرت طباخ الحكومة ولا فخر.



- ١٩ -

من «كوبونا إلى شهريار»

ووقعت لي في المطعم مزعجات كثيرة مع الشيوعيين، تمكنت من التخلص منها في النهاية. وقد نجح كازينو «كوبانا» وأخذ يستهوي الجموع الغفيرة من الأصدقاء القدامى والجدد، فأقبلوا بكليتهم على قائمة أطعمتنا «الدولية»، وأعجبتهم أسماء الأطعمة الصينية واليابانية والأندونيسية والهندية والجزائرية والمغربية والتونسية.

وما إن سمع الناس عامة، والأصدقاء المنزوين خاصة، أمثال اللواء إسماعيل صفوت والدكتور عبد الجبار الجومرد وصديق شنشل، والتاجر محمد الطريحي والسفير المتقاعد أحمد زكي الخياط ويحيى قاسم والدكتور نديم الباجه جي، بأن الزعيم ورفاقه يحضرون إلى الكازينو وصاروا من رواده، اطمأنوا إليّ وأخذوا يعودون أنفسهم على المجيء إلى الكازينو، والمكوث فيه يصطلون على نيران الموقد الكبير وهم لا يتحدثون في أي شيء إلا في السياسة.

وكان الدكتور عبد الجبار الجومرد الذي أعفي من عمله كأول وزير للخارجية في العهد الجمهوري، لا يطيق سماع صوت صديق شنشل وزير الإرشاد القومي الذي أعفي من العمل معه في مرسوم واحد.

وكان صديق شنشل، مع علمه بأن الدكتور الجومرد لا يطيقه ولا يتحمل وجوده، يكثر من التحدث عن جهاده في خلال ثورة رشيد عالي

الكيلاني، وفي عهد نوري السعيد. فقال له الدكتور الجومرد ذات يوم: وما هي آثار جهادكم يا أستاذ في عهدنا الجمهوري الخالد؟

فهبّ صديق شنشل واقفاً وبعد أن دفع حسابه ذهب غاضباً.

نهاية الكازينو المحزنة!

كان صديق شنشل من معارفي القدامى، وكان يطمئن إلى حديثي، وذات يوم دخل عليَّ وأنا في المطبخ، منهمك في إعداد خروف محشي للشيخ مهدي بن بلاسم الياسين، وقد شمرت عن ساعد الجد، والمريول الأبيض يجعلني أبدو بمظهر رئيس طباخي فندق ريتز بباريس، فقال لي: اترك المطبخ وتعال لنتحدث، فلقد ضقت ذرعاً بالحياة.

قلت: يا سيدي طلقت السياسة، فدعني وحالي، فأنا أفضل طبخ هذا الخروف، على طبخ قضية سياسية في هذا البلد الذي ضاعت فيه المقاييس والقيم الخلقية.

قال: لقد سألتني أمس عن الأسباب الحقيقية لاستقالتنا نحن الوزراء الستة من وزارة الثورة الأولى ولم أجبك، أفلا تريد أن تسمع الحقيقة من أحد رجالها؟

قلت: تحدث وأنا أسمع وأشتغل في آن واحد، فإن شيطانك لن يغريني على ترك هذا الخروف يتقلى على النار ليحترق.

وفيما نحن في أخذ وردّ وصل صاحب الكازينو العقيد المهندس قاسم الشالجي، وبقي زهاء دقيقة يستمع إلى حديثنا بدون أن نراه، ثم أخذته نوبة من نوبات العُطاس الشديدة التي كانت تنتابه فهو مصاب بمرض الحساسية في أنفه، فانتبهت إلى وجوده، ثم ما عتم أن قال مخاطباً شنشل:

ـ ما هذا الحديث الذي تشغل به يونس؟ دعنا نشتغل على باب الله، فإن من تتحدث عنهم كلهم لا يساوون ثمن هذا الخروف.

واحتدم الجدل، وقال قاسم الشالجي أمام الخدم الذين تجمعوا حولنا أقوالاً ليست مرضية. وبعد ربع ساعة من هذه الرواية جاء رجال الانضباط العسكري وأخذوا العقيد المهندس المتقاعد إلى وزارة الدفاع. وما إن حل وقت الغداء إلا وعاد العقيد قاسم وهو يزمجر ويقول: لقد عينت مديراً لصيانة نفط البصرة، وعليَّ أن أغلق الكازينو في هذه الساعة.

قلت: والطعام الفاخر الذي أعددناه والخروف المحشي الذي، نشويه ماذا نصنع به؟

قال: وزعه على فقراء جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني.

قلت: وأنا ما هو مصيري؟ قال: اذهب وراجع الزعيم، فهو الذي سيتولى أمرك بعد أن أمر بإقفال هذا الكازينو.

مطهم شهريار... ثم بوران!

وفيما أنا عائد إلى فندقي الجديد «سافوي» المجاور لفندق «كراند» التقيت بالدكتور عبد المجيد محمود أحد وزراء العهد الملكي ورئيس نادي البعث العربي في بغداد، فقال لي وهو يسخر: ماذا دهاك يا يونس كيف تترك الكازينو والمطعم في وقت الغداء. وأنا وبعض الرفاق كنا على وشك زيارتك لتناول طعام الغداء عندك؟

قلت: لقد رمانا الزعيم في الشارع من جديد، فلقد أمر بإغلاق الكازينو وإرسال قاسم الشالجي إلى البصرة.

قال: وماذا ستفعل؟

قلت: سأبحث لي عن عمل جديد، أو أعود إلى كشك البحري، ورزقنا على الله!.

قال: تعال معي.

وبعد هنيهة دخلنا مخزناً كبيراً لبيع المواد الغذائية والمعلبات يحمل اسم «القراغولي»، على مقربة من ساحة الجندي المجهول ونادى العلوية البريطاني، فاستقبلنا صاحب المخزن، وهو السيد عبد الصاحب محمود شقيق الدكتور عبد المجيد محمود، وفي علمي أنه كان ضابطاً مرموقاً في الجيش وبرتبة رئيس أول ركن، فما باله صار مثلي بائعاً للمواد الغذائية.

قال عبد الصاحب وهو يبتسم: لا تستغرب يا أستاذ فإن ما أوصلك إلى ما أنت عليه قد أوصلنا نحن أيضاً إلى ما نحن فيه، فلنتقاسم الهموم.

وعندها تكلم أبو الحارث الدكتور عبد المجيد محمود، فقال: لقد أمر الزعيم بإغلاق كازينو «كوبانا» وأصبح يونس عاطلاً عن العمل وأنت تبحث عن مدير لمطعم «شهريار» الذي يخصك فسلمه إلى أخونا يونس!.

قال عبد الصاحب: متى تريد أن تبدأ بالعمل؟

قلت: حالاً... وليكن خير البر عاجله.

قال: موافق.

وأخذني إلى المطعم، وكان متصلاً ببناية المخزن الكبير لا تفصل بينهما إلا حديقة واحدة كبيرة منسقة تنسيقاً جميلاً، تصلح لكي تكون مربعاً للسمار في الليل، ومرتعاً مؤنساً للرواد في أطراف النهار.

وتسلمت العمل في الحال، وكانت أصباغ جدران المطعم باهتة قذرة، فاشتريت أصباغاً زاهية الألوان طليت بها الجدران وبعد يوم كان منظر القاعة الفسيحة يأخذ بمجامع القلوب، ثم اشتريت حصراناً من القصب البردي، غطيت بها السقف وزوايا القاعة والبار، وطليتها بألوان تتعاكس مع ألوان الجدران، فصار الداخل إلى القاعة يحسب نفسه داخلاً إلى كهف خافت الأنوار يستهوي الأفئدة ويهدىء الأعصاب. وما أن دقت الساعة السادسة حتى فتحت المطعم للرواد...

ووقفت أمام الباب الزجاجي بملابس الطباخ وقبعتي العالية البيضاء شاهراً السكين الطويلة التي تشبه السيف، فصرت وكأنني قائد جيش يستعد للهجوم وخوض معركة حاسمة للانتصار في الجهاد المقدس، لا في سبيل الفتح والتحرير.. بل في سبيل الكرامة وعدم الموت جوعاً كالشحاذين الكسالى من أضراب تنابلة السلطان.

وكان في المطعم ثلاثة «بويات» و «سكن» واحد. وكلمة «بوي» إنكليزية، تعادل «غرسون» بالفرنسية. و «السكن» هي كلمة «سكند»، أي الثاني بالإنكليزية، ومعناها المساعد.

وكلفت كبير «البويات» سليم بأن يخاطب الأصدقاء والمعارف تلفونياً ليخبرهم بعنوان مطعمنا الحديد، وما إن أسدل الظلام علينا ستاره حتى غصت القاعة بالزبائن الذين أعجبوا بهذا المطعم الخفيف الدم، البعيد عن الرسميات والتعقيدات الاجتماعية السخيفة. واشتد إعجابهم بآلة شوي اللحم والدجاج الكهربائية، وجهاز شوي قطع «هامبورغر» والهوت دوغز، التي أشويها أمام أعينهم، فيتسلون برؤية اللحم وهو يتحمر، وبرائحة دخان الشوي وهو يتصاعد إلى أنوفهم، يتلذذون بعطره وكأنه رائحة عطر كارفن أو لانفان.

نلت نجاحاً باهراً رغم أنف الحساد، واستعاد مطعم «شهريار»

أمجاد مطعم «كشك بحري» الصغير، بصورة أدهشت الزميل عادل عوني، وأغراه المدخول الصافي من الأرباح، ففي صباح كل يوم كنت أقتطع نصف الأرباح أي ١٥ إلى ٢٠ ديناراً في اليوم الواحد...

ـ ٢٠ ـ

مطعم «بوران»

قال عادل عوني: دبر لي يا يونس «المخزن الكبير» لنجعله مطعماً ممتازاً، فقد بلغني أن صاحبه يريد بيعه لأنه أشرف على الإفلاس بعد أن هجر الأجانب بغداد وبارت تجارة المعلبات.

وأتممت صفقة شراء المخزن الكبير بخمسة آلاف دينار عراقي، دفعها عادل عوني، وتركت مطعم «شهريار»، ورحت أتولى إعداد المطعم الجديد بالاشتراك مع عادل.

وبعد أيام تحول المخزن الكبير إلى مطعم خطير صار أفخم وأرقى مطعم عربي و «فرنجي» في بغداد واشتغل المطعم بنجاح باهر، وقد **أطلق عليه اسم «بوران» تيمناً باسم زوجة الخليفة المأمون العباسي «بوران» التي تزوجها لسببين اثنين، أولهما أنها كانت تجيد فن الطبخ، والثاني لأنها تجيد فن الشعر، فهي التي نظمت القصيدة العربية الخالدة التي قالت في مطلعها: قولي لطيفك ينثني عند المنام.. الخ.**

وقد شغلنا اسم «بوران» هذا عن العمل حتى أنه كاد أن يقطع علينا رزقنا، فكان كل زبون يطلب منا سرد تفاصيل قصة بوران وما هو أصلها وفصلها، ومن هو زوجها، وما هي مهنته، وهل كان مثلنا طباخاً وصاحب مطعم.

وكان من أحسن زبائننا المهندس حسن سلامي، الصديق الأوفى

لمدير الأمن العام ولمدحت أمين رئيس استخبارات الجيش السابق الذي يعتبر الصديق المخلص للزعيم عبد الكريم قاسم.

ورجوت المهندس حسن سلامي أن يكلم مدير الأمن العام ومدحت أمين ليتكلما مع الزعيم، ليسمح لي بالعودة إلى بيروت حيث توجد زوجتي وبيتي وأعمالي، فوعدني خيراً.

وفيما كنت ذات يوم أتحدث إلى الأستاذ إبراهيم الربيعي مدير المصرف الصناعي وشلته المرحة رن جرس التلفون، وكان مخاطبي الرجل الشهم مدحت أمين، فقال لي: اذهب حالاً إلى مدير الأمن العام فهو ينتظرك.

فذهبت وأنا أكاد أطير من شدة الفرح، فسبعة أشهر في سجون بغداد كانت بمثابة سبعة أعوام مرهقة مع الأشغال الشاقة والتعاسة الماحقة، ثم سنة قضيتها في حرية معقدة تخللتها كوارث وويلات ومجازر ومحاولات اغتيال وثورات.

ودخلت على مدير الأمن العام العقيد عبد المجيد عبد الجليل، فقال لي بعد محاضرة دامت ساعة ألقاها علي: إن الزعيم حفظه الله قد أمرني بالسماح لك أن تعود إلى بيروت، فاذهب إلى وزارة الدفاع لتشكر الزعيم وتؤكد له حسن نيتك.

وفي مكتبه بوزارة الدفاع استقبلني الزعيم عبد الكريم قاسم، وقبل أن يرد على تحيتي قال وهو يضحك كعادته كلما يراني: اسمع يا يونس إني سمحت لك بالذهاب إلى بيروت فاشتمني أو امدحني، ولكن حكّم ضميرك.

وعدت إلى دائرة الجوازات والسفر، فوجدت جواز سفري محجوزاً بسبب أن عليٍّ ديناً للسفارة العراقية ببيروت قدره ١٠٠ دينار، فإذا لم أدفع هذا الدين فإن سفري ممنوع.

وقصدت المطعم، وكان الأستاذ إبراهيم الربيعي مدير المصرف الصناعي سابقاً وجماعته لا يزالون هناك، فحكيت لهم قصتي. وما إن حل وقت العشاء حتى دفع لي إبراهيم ٢٠ ديناراً، ودفع المهندس حسن سلامة ٢٠ ديناراً، والتاجر محمد الطريحي ٢٠ ديناراً أخرى، ودفع الأستاذ يحيى قاسم ٢٥ ديناراً، وقدم ابن أخي العقيد الركن وحيد صادق الجبوري ٣٥ ديناراً، فصار المجموع ١٢٠ ديناراً وضعتها في الصندوق «أمانة» عند الزميل عادل عوني.

وفي صباح اليوم التالي يوم ٣٠ كانون الأول ١٩٥٩، كنت أول زائر لوزارة المالية، فدفعت المئة دينار وأخذت وصلاً بالمبلغ قدمته إلى دائرة الجوازات، فسلموني جواز سفري مع أطيب التمنيات ودعوا لي بالسلامة على الطائر الميمون.

بقي عليَّ تقدير ثمن تذكرة الطائرة للسفر إلى بيروت. وكانت طائرة لشركة طيران الشرق الأوسط ستقلع الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم.

ورفض الزميل عادل عوني أن يدفع لي العشرين ديناراً الباقية لديه من المائة والعشرين ديناراً التي جمعها الأصدقاء صدقات خالصة لتسفير «معوز»، بحجة أن هذا المبلغ هو أجرة أتعابه التي قام بها بجمع المئة دينار. وفيما نحن نتصايح، مر بنا الشيخ بشار ابن الشيخ بلاسم الياسين، فلما عرف أسباب هذه المعركة، مد يده إلى جيبه وأخرج ٥٠ ديناراً سلمها لي وقال: اذهب إلى بيروت واذكرنا بالخير.

وفي المطار اشتريت تذكرة سفر بعشرين ديناراً وبقي في جيبي ٣٠ ديناراً نقداً وعداً، كان حصيلة جهود سنة ونصف السنة، وهكذا اكتفيت من الغنيمة بالإياب والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه غيره.

وقبل أن تقلع الطائرة بدقائق أقبل عليَّ الشيوعي عبد القادر

إسماعيل وهو يهرول، فقلت في نفسي متشائماً: إن الفرحة لم تدم، ها قد جاء هادم اللذات ومفرق الجماعات عزرائيل الأحمر.. ليأخذ روحي قبل أن أفلت...

ولكنه قال لي وهو يشد على يدي بحرارة استغربتها جداً: أرجوك أن تعطي هذه الرزمة إلى فلان في بيروت.

قلت: أمرك...

وما صدقت أن أكون في الجو إلا عندما أعلنت المضيفة التي رحبت بنا أننا سنكون بعد ساعة ونصف الساعة في بيروت.

ـ ٢١ ـ

الانقلابات العسكرية في العراق

وبمناسبة الحديث عن انقلاب ١٤ تموز، رأيت أن أقدم للقارىء في الصفحات التالية لمحة عن الانقلابات العسكرية السابقة التي حدثت في العراق.

قام الانقلاب العسكري الأول سنة ١٩٣٦ بعد دراسة وافية. كان يتعاون فيه الملك غازي الأول مع رجال السياسة المعروفين بحنكتهم، أمثال حكمت سليمان رئيس وزارة الانقلاب، والزعيم جعفر أبو التمن رئيس الحزب الوطني، ومهدي كبة رئيس حزب الاستقلال فيما بعد، وكامل الجادرجي رئيس الحزب الديموقراطي الوطني، وكان في ذلك الوقت يرأس حزب الإصلاح الشعبي. . .

يتضح مما تقدم أن الانقلاب العسكري الأول في العراق سنة ١٩٣٦ كان انقلاباً توفرت لمساندته العناصر اللازمة، فالملك، وهو رأس الدولة، يباركه ويرضى عنه، والأحزاب المعارضة تؤيده وتعمل لتأييده وتثبيته. فما الذي أطاح بالجنرال بكر صدقي، وقوض دعائم حكومة ذلك الانقلاب الذي أرضى الشعب وجعله يشعر بالشعور العربي القومي الذي بشرنا به ودعونا من أجله؟.

لقد كنت داعية ذلك الانقلاب الأول والناطق بلسانه، بل كنت خطيب الانقلاب ومذيعه في الشهر الأول من قيام ثورة ١٩٣٦. وقد

كتبت بيان الثورة الأول بخط يدي، وطبعت المناشير على الآلة الكاتبة في مكتب السيد جميل الوادي مدير البرق والبريد حينذاك، بحضور شقيقه العقيد شاكر الوادي ممثل الجنرال بكر صدقي والعضو الفعّال في مجلس تلكم الثورة. وقد طبعنا ألوفاً من هذه المناشير، منها ما وزع بالأيدي ومنها ما ألقي من الطائرات التي قصفت مجلس الوزراء العراقي بالقنابل.

وكنت الرجل الذي قاد المتظاهرين إلى دار المغفور له ياسين الهاشمي رئيس الوزراء وألقيت القبض عليه وسلمته جواز سفره لتسفيره هو وزملائه الوزراء إلى دمشق فبيروت في سيارة من سيارات «نيرن» عبر بادية الشام...

إن من قرأ كتابي «العراق اليوم» الذي ألفته في بيروت وطبعته في مطبعة السيد مصباح قليلات في باب إدريس سنة ١٩٣٧، يعرف الأسباب الحقيقية التي أدت إلى القضاء على ذلك الانقلاب الذي لم يقتل فيه إلا رجل واحد، هو الفريق جعفر العسكري وزير الدفاع وأبو الجيش العراقي كما هو معروف.

والسبب الرئيسي الذي أدى إلى تلك النهاية المحزنة التي انتهى بها انقلاب بكر صدقي، هو الذي حملني على الهروب من العراق والالتجاء إلى سوريا فلبنان بعد شهرين مرًّا على الانقلاب فقط. لقد رفع الشيوعيون عقيرتهم، وكانوا يؤلفون الجناح الأيسر المتطرف في حزب الإصلاح الشعبي، الذي يقوده السيد كامل الجادرجي، ويصدر باسمه جريدة «الأهالي»، يحررها سكرتير الحزب الشيوعي عبد القادر إسماعيل.

لقد تغلبت الأقلية الشيوعية المنظمة في حزب الإصلاح الشعبي على جميع الهيئات الحزبية، واستغلت عواطف رجل الشارع والطبقات

الكادحة، فشنتها حرباً شعواء عارمة على العقلاء والمعتدلين والموظفين المخلصين، وأمعنت في الاستهانة بكرامة الرجال، من غير المشتغلين بالسياسة، وحملت على رجال الدين حملات لا يزال يذكرها الناس بالألم والأسف، الأمر الذي حدا بي أن أقصد بكر صدقي غير مرة لأحذره من مغبة مثل هذه التيارات المناقضة لأهداف الثورة ومثلها العربية السامية.

ولكن بكر صدقي كان يلطِّف من حدَّتي بقوله: هاجمهم يا أخي... افضح أعمالهم بطريقتك المعهودة... أما أنا فلا أريد أن أتعرض إليهم بسوء.

ولما رأيت أن الوضع قد تأزم، وأن الكتلة الشيوعية وعلى رأسها عبد القادر إسماعيل البستاني، قررت ترك رجال تلك الثورة الأولى في العراق يتخبطون وحدهم في مرحلة السياسة الخاطئة، وعدت أدراجي إلى بيروت حيث التحقت بالمرحوم ياسين الهاشمي، وكفرت عن سيئاتي نحوه، وعملت معه إلى أن توفاه الله بالسكتة القلبية، فدفناه إلى جانب البطل صلاح الدين الأيوبي في دمشق.

لقد مر العراق العربي بعد ذلك الانقلاب الأول بستة انقلابات، منها محاولات انقلاب، ومنها انقلابات حقيقية.

ففي عام ١٩٣٩، أي بعد ثلاثة أعوام أعقبت انقلاب بكر صدقي، حاولت الفرقة الأولى المرابطة في كركوك بقيادة أمير اللواء الركن صالح صائب الجبوري (ابن عمي) القيام بانقلاب عسكري. وهذه المحاولة جرت هي الأخرى بالاتفاق مع الملك غازي الذي كنت أتعاون معه تعاوناً وثيقاً في إذاعة بغداد، وإذاعة قصر الزهور الملكي الخاصة به، التي أهداه إياها هتلر بالذات بواسطتي وتوليت إذاعتها.

وقد أردنا بهذا الانقلاب التخلص من نوري السعيد. وكان يساعدنا سرًّا في تدبير أمر هذا الانقلاب السيد رشيد عالي الكيلاني، وكان يومئذ رئيساً للديوان الملكي وأقرب المقربين إلى الملك غازي، وهو الذي كان يمسك بيده خيوط حملة ضم الكويت إلى العراق.

وكان إصرار الملك غازي على ضم إمارة الكويت إلى العراق، أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى التخلص منه بأي ثمن كان. ومهما كلف الأمر، فكان ما كان... وقضي على الملك غازي في خاتمة المطاف. وهناك من يعتقد أن إصرار العهد الملكي العراقي على المطالبة بإدخال الكويت في الاتحاد العربي في أوائل تموز عام ١٩٥٨، لعب هو الآخر دوره في نهاية فيصل الثاني ونوري السعيد.

لقد تعود رجال الجيش التدخل بالعمل السياسي، وصار ديدن صغار الضباط الجلوس في النوادي العسكرية، ومناقشة الأوضاع السياسية.

ولم يكن لدى الجيش بمجموعه واجبات عسكرية تشغله عن مثل هذه الأمور، فبقي الجنود مجمدين في ثكناتهم عاطلين عن العمل. وتوفر للضباط وقت طويل يشغلونه في التسلية وفي انتقاد الوزارات المتعاقبة على دست الحكم. وهكذا دب دبيب السياسة في عروقهم، وانصرف تفكيرهم إلى استغلال الفرص السانحة لقضاء مآربهم والوصول إلى الحكم.

وتألفت خلايا عديدة في مختلف مراكز الفرق والألوية. وقد شجع بعض هذه الخلايا في بغداد وجلولاء والمسيب وكركوك والموصل الأوكار السرية للحزب الشيوعي المنحل منذ أيام انقلاب بكر صدقي، حين سيطر الحزب الشيوعي على الحكم في ذلك العهد سيطرة تامة، صار تغلغل الشيوعية بين صفوف صغار الضباط أمراً واقعاً لا يقبل الجدل.

نعم، إن نجم الحزب الشيوعي العراقي قد أفل عندما اغتال أحد جنود الرئيس الأول الطيار محمود هندي الجنرال بكر صدقي في مطار الموصل، وصديقه المرحوم العقيد محمد علي جواد قائد القوة الجوية العراقية، فحلت وزارة جميل المدفعي التي حلت بعد إقالة وزارة حكمت سليمان، الحزب الشيوعي، ونزعت الجنسية العراقية عن رئيس الحزب الشيوعي عبد القادر البستاني، وفسخت نيابته، وكذلك نزعت جنسية أخيه الدكتور يوسف إسماعيل، وكان قنصلاً عاماً للعراق في باريس.

ولم تكتف الوزارة بهذا العمل فحسب بل عمدت إلى الكلية الحربية حيث تغلغلت فيها النزعة الشيوعية، فطردت بعض الطلبة ومن بينهم رشيد مطلك، وهو رفيق الزعيم عبد الكريم قاسم في حي المهدية، وزميله في المدارس الابتدائية والثانوية والحربية.

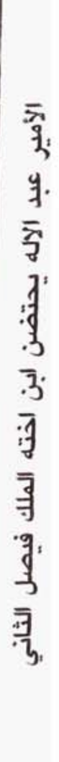
وكافحت الوزارة المدفعية الشيوعية بشدة وصرامة، بالرغم من إعلان رئيس الوزارة جميل المدفعي بأن وزارته هي وزارة إسدال الستار على الماضي، وعفا الله عما سلف.

ولكن نوري السعيد الذي كان يمسك بيديه خيوط الوزارات العراقية المتعاقبة لم يكن ليهمه شيء مثل اهتمامه بمحاربة الشيوعية والقضاء عليها قضاء مبرماً. بيد أن هذه الحرب العقائدية المتطرفة لم تكن لتؤثر على الشيوعيين المتسترين تحت أسماء مستعارة، فكانوا عندما تشتد عليهم وطأة المكافحة يستكينون برهة من الزمن، ولكن تنورهم السري لم تنطفىء نيرانه، خاصة عند بعض صغار الضباط في الجيش...

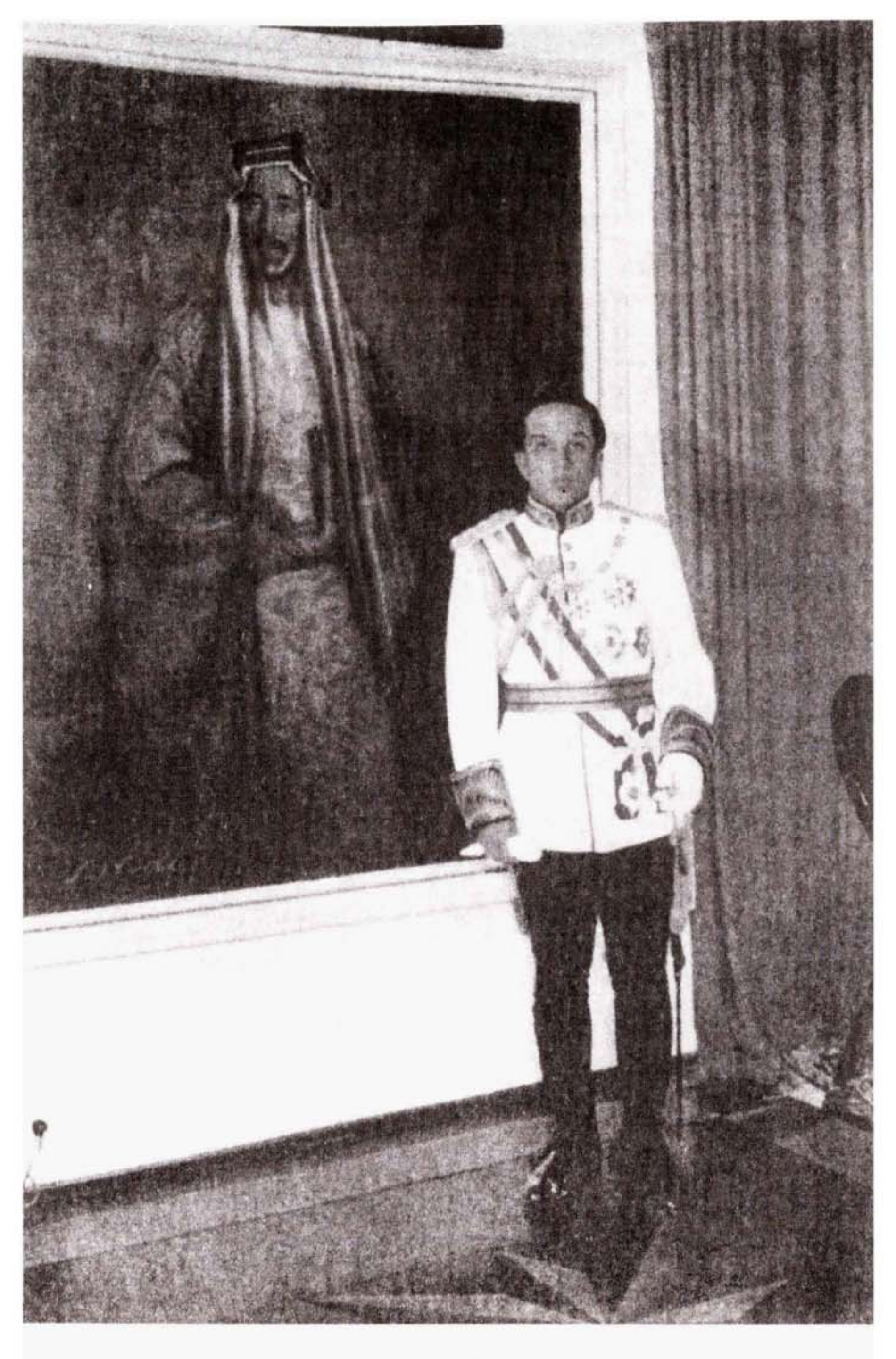
صور نادرة



الملك فيصل الثاني يجلس على الكرسي وهو صغير



الأمير عبد الاله يحتضن ابن اخته الملك فيصل الثاني



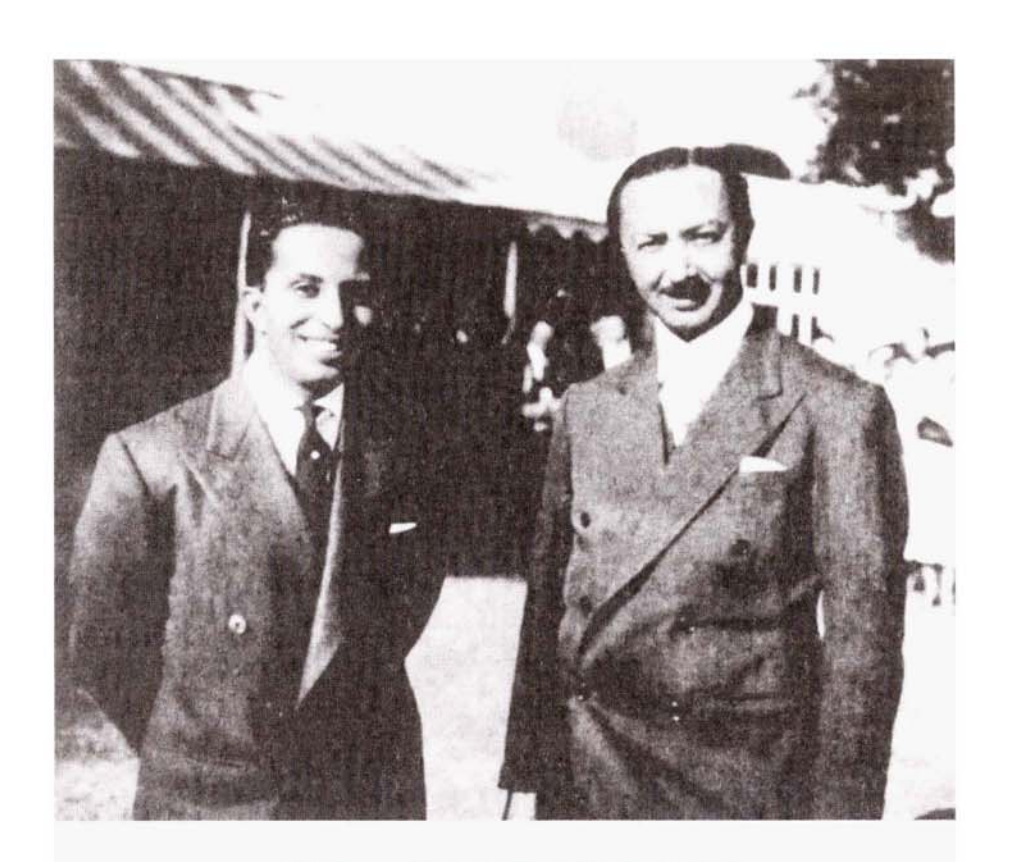
الملك فيصل الثاني ومن الخلف صورة جده الملك فيصل الأول



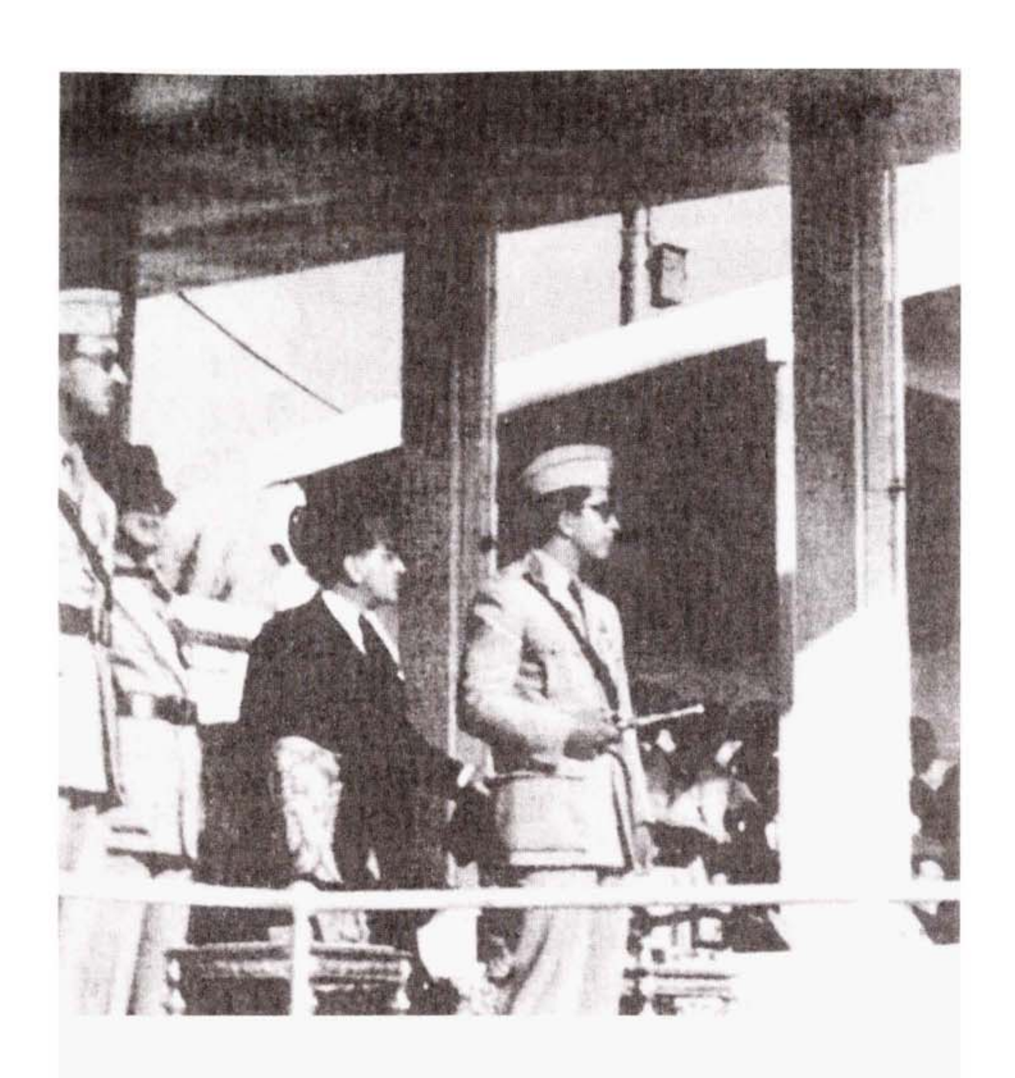
الملك فيصل الثاني عند زيارته إلى تركيا



الرئيس اللبناني كميل شمعون وزوجته يستقبلان الملك فيصل الثاني عند زيارته إلى لبنان عام ١٩٥٣



الملك فيصل الثاني مع خاله الأمير عبد الإله



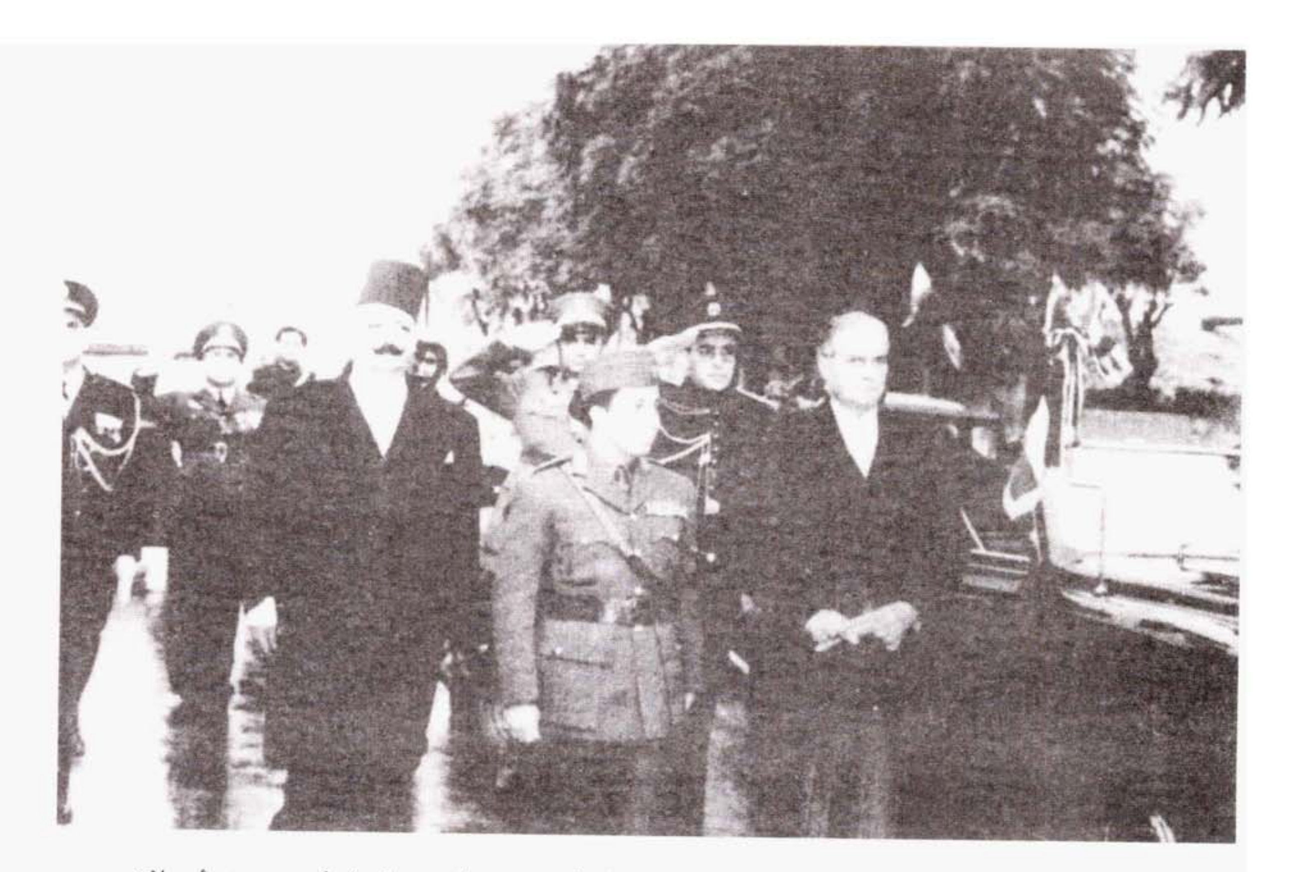
الملك فيصل الثاني والأمير عبد الإله ويشاهد في الخلف نوري السعيد
في استعراض الجيش العراقي



الملك فيصل الثاني وعلى يمينه نوري السعيد وعلى يساره الأمير عبد الاله



حفلة تتويج الملك فيصل الثاني وعلى يمينه الأمير عبد الاله



الملك فيصل الثاني وعلى يساره الرئيس اللبناني كميل شمعون وعلى يمينه الرئيس مجيد أرسلان



الملك فيصل الثاني ونوري السعيد رئيس الوزراء في حديث ضاحك مع رئيس وزراء تركيا



الرئيس جمال عبد الناصر مستقبلاً نوري السعيد رئيس وزراء العراق عند زيارته إلى مصر

الفهرس



يونس بحري

يونس بحري شخصية أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع، ولد بمدينة الموصل (العراق)، وطاف في أقطار كثيرة، وتعرّف على زعماء كبار، واشتغل بالصحافة فكان فيها نابغة عصره، وعمل بالإذاعة فوصل إلى أن أقنع وزير دعاية الفهرر الألماني أدولف هتلر، بتأسيس إذاعة برلين العربية، ولم يكتف بذلك فطلب من وزير دعاية هتلر فتح الطريق له لمقابلة الفوهرر، وكان له ذلك فأقنع الزعيم «أدولف هتلر» الذي كاد يقضّ مضاجع العالمين خوفاً بأن يعطي أوامره للمسؤولين عن إذاعة برلين العربية بأن تستهل الإذاعة بتلاوة آيات من القرآن الكريم.

وفعلاً بدأت الإذاعة تستهل صباحياتها بتلاوة من القرآن الكريم، فازداد عدد مستمعيها من العرب، وأعجب العرب بهتلر، وبنوا الآمال الكبار عليه للخلاص من الاستعمار الإنكليزي والفرنسي.

ثم ترك الإذاعة الهتلرية العربية وعاد إلى الشرق، ومرّ بلبنان وصولاً إلى العراق قبل ثورة ١٤تموز في العراق بيوم واحد سنة ١٩٥٨، ولم يمض إلا القليل حتى اعتقل وأودع سجن أبو غريب مدة سبعة أشهر ذاق فيها كغيره من رجال العهد الملكي العراقي كثيراً من الضغط النفسي، إلا أنه كثيراً ما كان يقضي الوقت خلال أيام السجن بالمزاح فيرتاح ويريح زملاءه السجناء.

زار المملكة العربية السعودية عندما كان في أوج عنفوانه الإعلامي **فالتقى بالملك الراحل عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية** الذي أرسله الملك بمهمة لنشر الإعلام في مناطق شرق آسيا فقام بمهمته خير قيام، ولقي من الملك عبد العزيز الحفاوة والعون.

وأخيراً توفي **يونس بحري** الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في بيت أقاربه وهو لا يملك مالاً، ولكنه ترك صيتاً يملأ الآفاق.

الناشر